٤٤٤٦٨

مسرودة

رباب كساب

مسرودة / رواية

رباب كساب

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف:

حاتم عرفة

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٧٥٦٧

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٩٧-٤١-٣

جميع الحقوق محفوظة©

مســـرودة

رواية

رباب كساب

الطبعة الأولى

٢٠٠٩

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى من تنسمت على يديه رحيق الحب الأول

من سكن الروح وأراح الفؤاد

شعاع الأمل الذي بثَّ الدم في شرايبيني لأعود للحياةِ من بعد

ممات

من أذاب جبل الجليد مخترقا جدار وحدتي واغترابي

أهديك ما بقى يربط بيني وبينك ... حروفي .... نزيف قلمي

الذي لم يعد يعرف سواك قِبلَة واتجاه

إلى صاحب الصدفة ..... أجمل صدفة .....

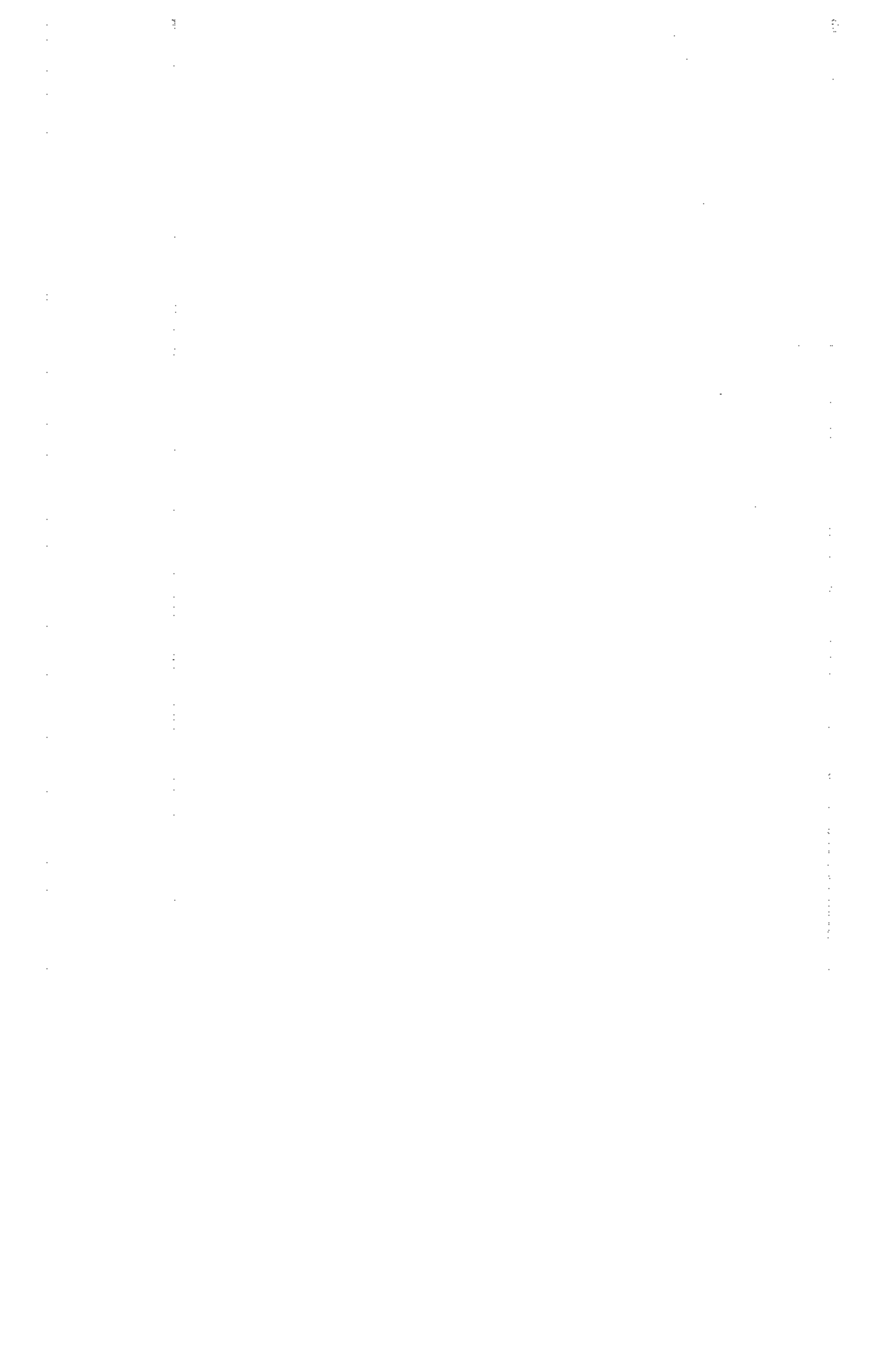
م - م

رباب كساب

ديسمبر ٢٠٠٨

البداية

عبد العزيز السيد عبد العزيز القط



١

في حياتي الطويلة التي لم أعد أحصي عدد أيامها ، وسنواتها لم أبرح قريتنا أبداً إلا حينما دخلت الجيش ؛ عدت لقريتي بعد سنوات التجنيد ، لسابق عهد حياتي بها ، رجعت لأمي ، وأخواتي البنات اللاتي أكبرهن ،عدت لخالتي حبيبتي التي أكبرها بخمسة أشهر فقط فكانت كأختي ، خرجت للدنيا لتكون هي صحبتي كنا كتوأم لا ننفصل ، يجمعنا ذات المكان ، ونفس الطباع ما أحبه تحبه ، ما أكرهه تكرهه نرتاد نفس الأماكن ، نسمع نفس الأغنيات ، أنا وخالتي مسرودة واحداً .

كثيراً ما كنا نختفي من أخواتي وأصدقاءنا ، ويبحث الجميع عنا فلا يجدنا ،لكن إن سأل أحد أمي فلن يضل فهي الوحيدة التي تعلم أين نذهب ؟ وإلى أي مكان نقصد .

حتى بعد أن كبرت ، وبعدت خالتي بالمكان لازلت أقصد نفس المكان حيث أرضنا في حوض داير الناحية ، وبالتحديد عند الساقية القديمة وشجرة التوت العتيقة ، والجميزة العجوز يكون مرتعي ، مكاني ، وسلواي .

حينما كنت وخالتي أطفالا اعتدت التعلق بالثور المغمساة عينيه وهو يدور معلقا بالناعورة التي أستعذب نعيرها وهي تروي أرضنا القريبة منها قبل أن نعرف الموتورات ، وماكينات الري .

هناك لعبنا ولهونا وفي برمودة تجدنا والتوت على موعـد ، وتتحول فروع الشجرة الكبيرة إلى مخدعي ، أصعد إليها آكـل ثمارها ، وأهز فروعها فتتساقط الثمار لمسـرودة ، والبنـات ، وأصدقائي ، وإن كانت تشاركني الصعود أحياناً خالتي الجريئة ، لكنها ليست أسرع مني في تسلق الشجرة ، كنت متفرداً في ذلك ؛ لا أحد حافظاً لحالِ فروعها مثلي ، أُحس الفرع قبل أنْ تطأه قدمي ،أستند إليه وفي أقل من الثانية أكون قـد قـررت أأبقى عليه أم لا .

في موسم دراس القمح كنت أحدها مهربي ، أختفي بـين الفروع ، والأوراق الكثيفة هرباً من قسوة الشمس ، والعمـل معاً ، وإن كانت شمس الماضي أحن علينا من شمس هذه الأيام التي فقدنا مع قسوتها معظم شهور السنة معرفة في أي الفصول نحن.

علمونا أن مناخ جمهورية مصر العربية حار جـاف صـيفا دافئ ممطر شتاء ، لكنه الآن لم يعد لا هذا ، ولا ذاك ، ففصل الصيف صار أغلب شهور السنة لا تحس الربيع ، والخريف قط ، أما الشتاء فصار بردا قارسا كما لو كنا في أوروبا لم يعـد تجدي معه الجدران الأسمنتيـة ولا البطـاطين السـميكة ذات الوجهين ، أذكر في الماضي أني كنت أبيت ليلتي الباردة فـوق الفرن المشتعل طوال اليوم فأتدفأ بحره الجميل فلا أحس برداً ، ولا نخراً في عظامي ، هذا الفرن التي كانت أمي تحرص عليـه وتحافظ عليه وإذا حدث وانهار جزء منه سارعت لبنائه بنفسها

، وعلى سطح دارنا كانت تخزن الأحطاب حطـــب الـــذرة وحطب القطن اللذان يستخدما في إحماء نار الفرن، رحمه الله كان يُخرج لنا أطيب الطعام وأشهاه فلم تعرف أمي فرن الغاز هذا المعدن الذي لا يعرف كيف يحس الطعام داخله ، فتجـــده يخرج منه غريباً كما دخله وكأن فرننا البلدي كـــان يـــأنس للطعام الذي يشابه مكوناته فيحسه منه قريبا يتفاعـــل معـــه ، يعطيه ولا يبخل فإذا حانت لحظة الفراق يبكيه في لوعة فيخرج الطعام متألما لفراقه وكأن لوعة البعاد لهي أسوأ من نار الفـــرن فتجد رائحة الفرن تملأه مشرباً بها ، فكيف للحبيب ألا يتـــزين بعطر حبيبه وتجد نفسك في النهاية تتلذذ بما تأكل ، أما الفـــرن المعدن الذي لا يعرف سوى النار التي تأكله شيئاً فشيئاً يخـــرج منه الطعام كما لو أنه يحمل طعم انصهار الحديد ما إن يدخل جوفي حتى أترحم على طعام أمي التي كانت تدس صينية الأرز فنتهافت عليها وحدها دون أن نفكر أن نأكل معهـــا شـــيئا فطعمها الجميل يكفي دون أي شيء ، وحين كانت تضع بعد الخبز برام البطاطس فإذا بنا على أحر من الجمر ننتظر لنأكـــل البطاطس حتى وإن كانت بدون لحم .

٢

سُميت خالتي مسرودة باسم الأكلة الشهية التي نعتبرها في عائلتنا من أفضل الأكلات على الإطلاق وتجدها في بيتنا في المواسم والأعياد وفي غيرها من المناسبات التي تهم العائلة بأسرها .

أمي كانت الوحيدة ضمن ثمانية أخوة ، الثمانية هم الذين كتبت لهم الحياة من ثلاثة عشر وليدا لجدتي التي حملت للمرة الرابعة عشر رغم أن أمي كانت قد تزوجت وهي الابنة قبل الأخيرة فكل أخوتها البنين قد تزوجوا قبلها و لم يبق سواها وخالي محمود آخر العنقود والذي تزوج بعدها ببضعة أشهر هو الآخر .

لم يكن الأمر متعجبا في الريف فهو دائما ما يحدث ، كنت على كتف أمي حينما كانت جدتي في شهرها التاسع لحظة انتابت جدي رغبة مستميتة في أكل المسرودة فاستدعت جدتي أمي لتساعدها فهي لا تفضل أيا من زوجات أخوالي حتى أنها رفضت أن تكون معيشتهن معها فكان لكل منهم منزل مختلف على غير عادة أهلنا قديما حيث يأخذ كل واحد من الأبناء غرفة أو قاعة تكون له ولزوجته .

لم تشأ جدتي بنساء غريبات في دارها وقد عاشت طوال عمرها سيدة جيش من الرجال .

وبينما كانت هي وأمي منهمكتين في العمل من عجن ، وتقطيع العجين لقطع صغيرة ، وفرد القطع حتى يرق سمكها ، ثم وضعها لتجف ، حتى يحين فركها في ديارة (غربال كبير من السلك ذو الفتحات المربعة الواسعة) كبيرة ، دخلت امرأة خالي محمود تخبرهم بأنها حامل ففرحت جدتي فرحة كبيرة وكذلك أمي فلقد كان خالي محمود هو المدلل لديها وساعدتهما امرأة خالي حتى انتهت المسرودة .

جلس جدي يتناولها في نهم شديد وقبل أن ينتهي صرخت جدتي متألمة فلقد كان هذا هو موعد تشريف المولود الجديد ، وحضرت القابلة (الداية) وساعدتها أمي ونساء القرية الكبيرات ولم تستطع أمي أن تبقى معهم في الداخل لأنها لا تتحمل وثانيا لأني لم أكن أكف عن البكاء فظلت إلى جوار باب الحجرة لتلبي أي طلب بينما كان جدي يجوب صحن الدار جيئة وذهابا وبين الحين والآخر يأكل ملعقة من المسرودة ثم يعود لحاله ، الجميع كانوا في حالة ترقب ، أخوالي جميعهم وزوجاتهم وأطفالهم الكل قلق على السيدة الكبيرة خشية أن تصاب بأي مكروه .

أما جدي كانت تلمع في عينيه الدموع وكأنه يقول لها لن أسامح نفسي لو حدث لها أي شيء ثم يعود ويأكل المسرودة حتى خرجت الداية بعد أن ارتفع صوت الوليد الذي ما إن سمعت صوته حتى كففت عن البكاء وقالت الداية في فرح إنها فتاة فصرخ جدي على الفور : مسرودة .

فالتفت الجميع نحوه معتقدين أنه يريد صحن المسرودة ولكنه تابع قائلا : سأسميها مسرودة .

ولم يكن أحد يعلم أن مسرودة ستصير حياتها كلها مسرودة.

كانت فرحة جدتي وجدي بكونها فتاة لا توصف فسوف تكون عكازهما في شيخوختهما ، ومعينة أمها في أعمال الدار من خبيز وغسيل وطهي وخلافه فلو كانت ذكرا ما كانت ستفعل ذلك وخاصة أن أمي متزوجة ولها بيتها وطفلها الذي هو أنا .

هكذا كنا دائما أنا ومسرودة نستدرج أمي حتى تروي لنا تلك الحكاية التي أبدا لا نمل من سماعها .

كانت خالتي مسرودة تشبه أمي كثيرا وإن كانت أصبا وأجمل ، إن لأمي وجها دائريا وعيونا سوداء واسعة وجسدا أبيضا كما اللبن الحليب ممتلئة الجسم كلما تحركت تحس جسدها يترجرج مع كل خطوة تخطوها ، إلا أنها برغم امتلائها كانت خفيفة الحركة لا تكل ولا تمل وتظل تعمل طوال اليوم حتى تجدها بعد العشاء وقد أخذها الكرى في طياته فلا تصحو إلا مع أذان الفجر .

لم يكن لها سوى البيت وأعماله ولا تخرج للحقل إلا إذا استدعى الأمر فقلد كان أبي يحرص عليها ويخشى إرهاقها وهي ابنة العز ، فإذا تعذر أن يأتي بعمال في موسم جني القطن إذا

زرعناه مثلا كانت تخرج معي وأخوتي ، ويوم دراس القمح فقط وعند شتل الأرز .

أما في غير ذلك فهي لا تخرج للعمل في الحقل أبدا ، ولكنها كانت تصحب أبي في ليلة الري ليتسامرا معا ، وقبل المغرب حين تذهب له في العشة الصغيرة التي أقامها أبي على رأس حقلنا لتشرب معه الشاي .

كانت أمي قوية مثل أمها بدون تسلط أو تجبر رأيها سديد على الرغم من أنها لم تطأ قدمها يوما مدرسة أو تتعلم تحيا بفطرتها السليمة النقية ، كان أبي يحبها بشدة وكنا جميعا نلمس هذا الحب الذي صقلته العشرة ، والمودة يوما بعد آخر .

كانت أمتع لحظاتي حين كنت ألقي بنفسي في حضنها كل مساء أغمرها بقبلاتي ، وأدفن رأسي في صدرها الذي نهلت منه الكثير أنا ومسرودة التي أرضعتها أمي لأن ثدي جدتي كان جافا نضب لبنها سريعا .

كنت أحس صدر أمي بحراً أغوص فيه ، حنانها ليس له حدود طيبتها أجمل ما فيها ربتة يدها على كتفي كانت تشعرني بالأمان والحب والحياة ، حينما كنت أمرض أنا أو أي من أخواتي أو حتى مسرودة التي لم تكن تفارق بيتنا وكانت تنادي أمي أختها بأمي مثلي لم تناديها باسمها مجردا على الرغم من كونها أختها ، كنت تجد أمي في لهفتها كمن تأتي بسكين ، وتقطع أجزاءها وهي حية ، رغم محاولاتها لتكون متماسكة ،

حتى إنها تعلمت استعمال المحقن فكانت تقوم بتلـــك العمليـــة بنفسها رغم أني كنت أحسها ، وكأنها تمسك به لتحقن نفسها ، وأبدا لم تكن تظهر شيئا مما تعاني ، وحين يأتي الليل تجلـــس إلى أبي تحدثه باكية ، وأسمع ومسرودة صوت بكاءها ، ومحنتها لأنها تتألم لألمنا يؤسفها مرضنا ، ويؤلمها أنها امتدت لنا يـــدها بمحقن وتجدها تقول : ياريت كنت أنا ولا أشكش حد فـــيهم أبدا .

يرد أبي عليها : ما تعمليش في نفسك كدة يا زينب دا انت بتديله الدوا عشان يخف يا حبيبتي مش بتدبحيه . وتقول أمي : مش قادرة يا أبو عبده حط نفسك مطرحي وجرب كدة تمـــد إيدك بالحقنة للواد عبده أول ما تقرب من جســـمه بحـــس إن جتتي كلها بتتنفض ، بس أرجع وأقول أشكه ولا يبقى عيـــان أبدا .يقول أبي : ما هو دا اللي بقوله من الصبح أنـــا قلـــت حاجة تانية . هذه أمي كتلة من الحنان لا ينافسها فيه غـــير أبي السيد عبد العزيز القط صاحب العيون الضيقة والجبهة العريضة والجسد الضخم والشفاه الغليظة ، لم يكن أبي وسيما ولكنـــه كان طيبا عقله راجحا ويميل لاستشارة أمي في كـــل كـــبيرة وصغيرة فأحيانا يجد لديها معينا له وفي رأيها ما يؤيده .

أما مسرودة فكل ما لديها مضاعف فلها أمـــين ووالـــدين مدللة من الجميع حسنها يراه كل الناس اسمها يلفت إليها النظر كانت معروفة من كل الناس وفي كل مكان تذهب إليه .

٣

دخلت ومسرودة المدرسة كنا نسير مسافة طويلة تتعــدى الثلاث كيلومترات يوميا في رواحنا ومجيئنا ، لم أكـن أحـب الدراسة ، ولا المدرسة ، وكانت أمي تبذل جهدا خرافيا كـل صباح هي و مسرودة ليجبراني على الاسـتيقاظ ، والـذهاب للمدرسة ، ولولا مسرودة لما أكملت تعليمي ، كانت دائمـا تدفعني للعلم والمذاكرة ، و تشرح لي الكثير مما كنت أعجز عن فهمه في المدرسة ، فأنا ما إن يتحدث المدرس في أي موضوع حتى أسرح بعيدا حيث ساقيتي وجميزتي وشجرة التوت ولعب الكرة مع أصدقائي عبد المحسن ومحمد أبو سليمان وعوض كنا نلهو في الحقول ، ونلعب الكرة ، ونصنع الطـائرات الورقيـة وجميعنا لم يكن يحب الدراسة إلا عوض فقد كـان حريصـا حرصا لا حدود له على الحضور والتعلم حتى في الأيام المطيرة التي كنا نعجز فيها عن المشي في الأوحال كان يفعل المستحيل ليذهب فلا يتغيب يوم إلا للشدائد القصوى ، وكثيرا ما كانت مسرودة تعيرني به حتى تحثني على التحصيل .كنت أرفـل في بحور من الحنان ، ولكن البحر الخضم الذي لا يماثله بحر هـو حضن جدتي قوت أم أبي تلك العجوز التي لم تأت للدنيا بولد سوى والدي ، مات زوجها بالكوليرا تاركا إياها أرملة وحيدة دون أحد سوى وليدها الصغير .

شابة صغيرة شابت قبل أوانها ، ظلت ترعى ولدها دون أن تفكر بالزواج مرة أخرى على الرغم من معارضة جميع أهلها ،

لكنها عافرت ، عملت في كل شيء عاملة في جني القطن وفي شتل الأرز وقطف العنب ، كما كانت تساعد بعض النسوة في الخبيز نظير أجر بسيط كل هذا لأجل أبي الذي شب فتيا ، منذ طفولته يساعدها ويعمل بيدها ، استطاع أبي أن يملك أول فدان قبل أن يتم السابعة عشر من عمره رغم أن أبوه قد مات دون أن يترك له شيئا لأنه كان عاملا أجيرا ، جد ، واجتهاد ، ومثابرة أمه وجهدها جعلاه السيد عبد العزيز القط .

وحين أتم الثامنة عشر كان متزوجا من أمي التي عارض زواجها كل أخوتها الرجال الذين يعتزون بعزوتهم ، وكثرتهم ، وأرضهم الكثيرة ،لكن أباهم كان يحب أبي ، ويقدره لذا كانت كلمته الفاصلة لهذا الموقف وتزوج أبي من أمي وكنت أنا باكورة نتاجهما .

كنا نعيش وجدتي قوت في نفس الدار القديمة التي جددها أبي ، وبنى فيها بعض الحجرات ، وقام بتوسيع حظيرة المواشي التي زاد عددها ، كان أبي مزارعا جيدا وتاجر ماشية لا غبار عليه لذا كنا نعيش في بحبوحة وأفضل من كثيرين في قريتنا .

كانت أفضل أيامي حين كنت أنزل السوق في أيام الأجازة مع والدي وأراه بعيني وهو يزايد ويفاصل في بيع جاموسة أو حمار أو بقرة أو حتى عنزة يأتيه هذا وذاك ليأخذ رأيه ويعطيه ثمنا لما معه قبل أن يبيعه ولم يكن أبي ليخيب في تقدير أي شيء أبدا .

لكم تأملته متعجبا ، وأنا معه أكف عن ثرثرتي ، أدع عيني تلتقط ما يحدث دون أن أنطق ، وأترك عقلي يسجل كل شيء.

وكم دهشت ، وتعجبت من نفسي فأنا أذكر أحداث السوق بمجملها ، وأحسب جيدا ، وأحفظ الأسعار وأبدا لا أحفظ ، ولا أستوعب أي شيء مما يقال في المدرسة التي يتفوق فيها أقراني عليَّ بمراحل وعلى رأسهم مسرودة الجميلة التي أودى جمالها بحلمها في التعلم .

كانت طويلة فارهة ذات جسد ضخم بلغتنا (بت فايرة) لذا كان يجب ألا تبعد عن ناظري أهلها كثيرا فقام أبوها جدي بإخراجها من المدرسة ، ووافق أبي على ذلك ، وكذا كل أخوتها ، و لم تشفع توسلاتها ، وبكائها وتوسلاتي أنا أيضا لإبقائها في التعليم فأنا الوحيد الذي يعلم كم هي متفوقة ، وتستحق أن تواصل .

لكن مسرودة فعلت ما استوجب عليَّ أنا الآخر أنا أقف معهم وأحمد الله على أنهم منعوها من دراستها ، ووجدت يدي التي طالما حنت وربتت عليها تضربها بلا هوادة .

كان واحدا من الأيام التي شعرت فيها بالضيق فهربت إلى عشتي بالحقل حيث أفرغ بين مزروعاتي وفي حضن ساقيتي همي

الصغير حينها ، وفي الطريق لمحت عيني مشهدا ما كنت أصدق أني سأراه ، لم أستطع أن أكمل الطريق ، وقفت متسمرا عاجزا عن التصديق لوهلة ، عدت أحملق من جديد فيما رأيت علني كنت متوهما ، لكني تأكدت .

عدوت نحو المكان حيث المحبان الهائمان السابحان في واد غير الوادي ، غير عابئين بما حولهما ، لم يحسا قدومي ، صرخت بهما إنها خالتي وهو صديقي .

جذبتها من ذراعها بينما هو أطلق ساقيه للريح يحملانها فلم أستطع الإمساك به ، في حين هوت كفي الكبيرة على وجهها ، في غير تصديق منها ، عَدَت عني بعيدا ، لم أتمكن من اللحاق بها ، ما رأيته كان كما الهم جثم على صدري كان ثقلا وعبئا لم يمكني من العدو وراءها .

رحت أبحث عنها في كل مكان لاهي في بيتنا ، ولا ببيت أبيها ، لا أحد رآها ، سألت نفسي أين ذهبت ؟

اهتديت إلى مكانها ، وعرفت أين هي ، فهي إن لم تكن عند الساقية فهي فوق سطح دارها وصعدت إلى هناك ، درت بعيني باحثا عنها ، لم ألمحها ولكني سمعت نشيجها ، ذهبت خلف الصوت كانت تبكي بحرقة أول مرة أراها تبكي حتى عندما أخرجوها من المدرسة لم أر دموعها وإن كان أثر البكاء قد ظهر عليهما .

منذ طفولتنا وهي لا تعرف البكاء كانت تعصي وتغضب وتتذمر لكن لا تبكي لم أر دمعها وهالني رؤيته رغم بشاعة جرمها اقتربت منها فسارعت تمسح دموعها لتعود مسرودة القوية ولكنها فشلت في إيقاف السيل الذي انهمر ، ربت على كتفها فابتعدت عني فقلت : بتعيطي عشان محاسبكيش .

قالت في وهن : انت تضربني يا عبده ؟ أول مرة تمد ايدك عليّ .

وواصلت بكاءها المحموم فأخذتها في حضني وأنا أقول : كانت آخر حاجة ممكن أتوقعها يا خالتي ليه عوض ؟ دا انت عارفة سيرته .

- ومالها سيرته ؟ الناس بتقول كدة عشان ابن شيخ البلد بس كلهم يتمنوا .

- هما يتمنوا لكن انتِ يا خالتي ....

- من امتى كل شوية تقولي يا خالتي ....يا خالتي .

- صعبان عليا إن خالتي هي اللي تغلط ، يا مسرودة انت غيرهم وغير كل البنات انتِ أحلاهم وأفضلهم ، فاكرة أبوكي لما طلعك من المدرسة عمل كدة عشان عارف انتِ إيه خايف عليكي من اللي زي عوض ، هو دلوقت فارش لك الأرض ورد وهو عارف إنه مش هيسيب لك غير شوك الورد ،

وبعدين هو دلوقت في الثانوي في المركز وبكرة يروح الجامعة عمره ما هيحط هنا يا مسرودة بكرة ينقي واحدة من زملاته في الجامعة مش هيبص لواحدة ما خدتش غير الاعدادية حتى لو كانت في جمالك وحلاوتك يا خالتي .

- انت ليه قاسي كدة يا عبده ؟

- الدوا دايما مر وأنا خايف عليكي وما حبش واد زي عوض اللي مافيش وراه غير سيرة البنات دا اللي تضيع سمعتك عشانه .

وبمجرد أن أنهيت حديثي حتى انسالت دموعها ثانية فقلت لها : بتعيطي ليه دلوقت ؟

قالت : خدني في حضنك يا عبده ربنا ما يحرمني منك أبدا.

مرت أيام على رؤيتي لمسرودة وعوض الذي لم ألتق به ، و لم أبحث عنه فلقد ترفعت عن أني أتشاجر معه ، وذلك حتى لا يشاع في البلد خبر مشاجرتنا فتتساءل الناس وتلاك سمعة مسرودة في أفواههم .

كنت في الحقل وفي يدي المنجل أقطع به بعض الدراوة للمواشي فمر علي عوض ، رمقته بنظرة غاضبة فبادلني بنظرة مستهزئة ساخرة فجرت الدم في عروقي ، اشتعلت براكين الغضب داخلي فعدوت نحوه وطوقت رقبته بذراعي وركنت

ظهره نحو الشجرة ووضعت المنجل حول رقبته ثم قلت : والله أحش رقبتك زي الدراوة دي وهاعملها لو قربت منها ولا مني تاني ، أوعى تكون فاكر إني ما كلمتكش خايف منك ، يـــا خي دهدي إنسى أنا سكت عشان متجيش سيرة خالتي والناس تعرف لكن وعزة جلال الله يا عوض إن نطقت في قاعدة مـــن قعداتك باسمها ولا أي حاجة م اللي دارت بيناتكم لا أكـــون حاشش رأسك بالشرشرة وإياك تستهين بكلامي فاهم انت ما رعتش العشرة وعيشسي وملحي يا صاحبي متنتظرش مـــني ان أكون باقي عليهم .

وفر من أمامي مذعورا فلقد كان الجميع يخافونني فأنا ضخم الجثة بالنسبة لهم جميعا قوي البنية أفوقهم طولا حتى أن كثيرين كانوا يخشون الخشونة في الحديث معي حتى لا ألكز واحـــدا بيدي فقط ، لذا كان من السهل عليَّ تكبيل عوض وإيقافـــه وكان يعلم أني جد تماما فيما قلته .

تردد في البيت كلاما عن زواج مسرودة سمعت هذا الكلام من أخواتي البنات ماجدة وروحية وعايدة اللائي فرحن لمجرد أنه سيكون في دارنا فرحا .

مسرودة ، وأنا كنا في السابعة عشر من عمرنا وكنت على وشك الحصول على دبلوم الصنائع ، وبدأت أتساءل من هذا الذي سوف يعطونه الجميلة مسرودة من هذا الذي سوف تستبدله في عقلها وقلبها بعوض ابن شيخ البلد وهي التي لا تقل عنه في شيء فما عند جدي وأخوالي ليس بقليل ؟

وتساءلت وجاءت أسئلتي كأنها الشوك في حلوقهم وقالوا في اقتضاب : جدع م البلد اللي جارنا عنده خمس فدادين وبيت ملك له لوحده مش هتبقى عيشتها شرك .

قلت : والجدع اللي م البلد اللي جارنا شاف مسرودة فين؟

ردت أمي : كانت عند خالك زينهم وشافها عنده أصله بيتاجر زي خالك في الأراضي والمواشي وخلافه .

قلت : عنده كم سنة ؟

أمي : هو تحقيق يا وله ؟

قلت : الله عليكي يا أمه مش لازم تعرفي أختك هتروح فين.

أمي : وهما يا بني هيبيعوها ؟ وأي كلام بعد كدة مـــالوش لازمة هما اتفقوا خلاص والخطوبة كمان كم يوم .

قلت : إيه ده بالسرعة دي بيسلقوا بيض ؟

وبسرعة ذهبت إلى مسرودة التي وجدها لا هي فرحـــة ولا هي حزينة قالت لي في استكانة : كبير كدة يجي عشرين سنة.

قلت : ووافقتي ليه ؟

- وأقول لأ ليه ؟

- قولي كبير .

- أقول لمين ؟

- لأبوكي .

- أبويا إيه يا أخي ما انت عارف جدك خلاص ما عـــدش فيه حيل وعارف إنه وأمي قدام خالي زينهم ما يقدروش يقولوا لأ ، يا حبيبي دا قرا الفاتحة من غير ما يقول لي كأني حتة أرض باعها وقبض تمنها ولما جيت أقول لأبويا صرخ فيّ هو وأمـــي ازاي اتكلم في حاجة زي دي اللي يقوله زينهم لازما يمشـــي يبقى أي كلام تاني ما منوش فايدة يا ابن أختيّ .

- أقوله أنا .

- ما تجيبش لنفسك الكلام .

ولكني لم أستطع الصمت حين علمت أنه كان متزوجا من قبل وطلق زوجته وألقى بها وبطفليها ، لقد ذهبت بنفسي إلى بلدته وسألت عنه عن طريق زميلي في المدرسة جلست معه أحتسي الشاي وتطرقت بالحديث عنه وأجابني صديقي بما أوغر قلبي وملأني غضبا منه وذهبت إلى خالي زينهم وقلت له : حرام عليك هيّ مسرودة عملت فيك إيه عشان ترميها الرمية دي ؟

صعق خالي من كلماتي ومن الغضب الذي يتطاير شرره من عيني وكيف لي أنا الذي أصغر من أصغر أبنائه أن أكلمه هكذا فقال لي : وانت مالك ؟

قلت في حدة : يعني إيه مالي ، أنا مالي ونص مسرودة خالتي وأختي في نفس الوقت وأمرها يهمني ازاي تجوزها لواحد كان متجوز قبل كدة وعنده عيال هي بايرة وألا بايرة دي مفيش بت في الناحية كلها في جمالها ، والله أكيد وراك مصلحة.

وما إن نطقت بالكلمة الأخيرة حتى هوى خالي بيده على وجهي صافعا فلم أحس إلا بطعم الدم في فمي فأحرقته بنظرة تحمل من القوة مثلما تحمل من الغضب ، وانطلقت مبتعدا .

عرف أبي و أمي بما فعلته فنهراني على فعلتي ، لكني لم أكن أحس أني مخطئ .

الوحيدة التي كانت تساند موقفي هي جدتي قوت الـــتي لا يعجبها الأمر وتعلم كما يعلم الجميع أن خالي زينهم لا يهمـــه سوى مصلحته فقط ، ولأنه الكبير فلا أحد يستطيع معارضته، لكني أنا الصغير وقفت أمامه معارضا رغم أن معارضتي ذهبت هباء .قاطعت كل مظاهر الفرح التي كانت في دار جـــدي ، كنت أقضي معظم وقتي في الحقل بعيدا عن أي منهم ففي لحظة شعرت بأني أكرههم جميعا هؤلاء الذين ساهموا في بيع قطعـــة مني .

وبين الحين والحين كانت تأتيني هناك عند الساقية تجلس إلى جواري صامتة لا تتحدث ولا أحدثها .

مرة قالت وكانت آخر مرة : نفسي أجري وأجري لحد ما أقع م التعب .

في كلماتها شعرت برغبتها الأكيدة فقمت وقفت وقلت : تسابقيني ؟!!

قالت في تحد : أسابقك .

عدونا في الحقول ، ظللنا نعدو وقد قاربت الشمس المغيب حتى أعيانا التعب فجلسنا وضحكنا كما لم نضحك من قبـــل

كنت أحس أنني ألبي لمسرودة آخر طلب تطلبــه ويكفــي أني كنت شريك آخر ضحكها من القلب .

لم أحضر فرحها فلازلت معترض ، ولكني رأيتها بملابــس العرس عروس جميلة لشاب وسيم ، ليس هذا الشــاب الــذي كلما رأيته لا أرى في عينيه سوى نظرة ملؤها الرغبة والشهوة تحرقها ، وأعلم أن خالتي كانت تحسها فكانت تبعد عينيها عنه متفادية النظر إلى عينيه التي تجول متفحصة في كل قطعة مــن جسدها .

ولكنها في يوم العرس هذا كانت جميلة رائعة كما تخيلتــها تماما بدرا في وسط السماء ، سال الدمع من عيني وأنا أراهــا تزف إلى المجهول الذي دفعوها إليــه دفعــا ، يســيطر علــيَّ إحساسي بالعجز التام وأنني لا أقدر على فعل أي شيء هــذا الإحساس الذي كان يحرمني حتى النوم .

لم أدخل بيتها ولا مرة واحدة ، وحينما كانت تأتي زائــرة كنت أهرب من البيت حتى لا أحس بعجزي متجسدا أمــام عيني حين أبصرها ، ولكنها لم تكن تكف عن السؤال عــني ، وذات يوم جاءتني حيث مكاني المعتــاد فاجــأتني بوجودهــا فانتفضت واقفا حين وقعت عيني عليها بعد أكثر من شهرين لم ترها فيهما عيني وقد كنت لا أفارقها .

مددت يدي أسلم عليها جذبتني نحوها ، وارتمت في حضني ، قبلت وجنتي ، بادلتها قبلاتها .

جلست إلى جواري كدت أبكي وأنا أنظر إليها وأحس بالانكسار فقالت معاتبة : كدة يا عبده شهرين بحالهم ماشوفكش حتى متجيش بيتي تباركلي وتشوفه .

لم أرد عليها فأردفت قائلة : ماهوش وحش مش زي ما انت فاكر والله طيب .

- يعني إنتي سعيدة يا مسرودة ؟
- الحمد لله يا أخويا .
- بس مالك خاسة كدة ليه ؟
- يا أخي خاسة إيه دا أنا حاسة اني بقيت فيلة .
- حتى لو بقيتي فيلة هتبقي أحلى فيلة في الدنيا .
- يا بكاش يا ابن أختي .
- ما بتضحكيش ليه يا خالتي ؟
- وانت قلت حاجة تضحك ؟
- عينيكي ما بتضحكش يا مسرودة .
- أنا هقوم أمشي أحسن أمة زينب عوزاني .
- مسرودة .

- نعم .

- كان نفسي أبقى جنبك على طول بس غصب عني .

- عارفة يا عبده وما بلومكش ولا يمكن أقدر ألومك أبدا .

وساد صمت قصير قاطعته هي قائلة : ياللا قوم أما نتعشى سوا قبل ما أمشي .

قمت معها واستقبلتنا أمي بترحابها الجميل ووضعت أمامنا العشاء فجلست آكل وفي ذاكرتي أيامنا الخوالي .

٥

حصلت على دبلوم الصنائع وبدأت أحلم بحياة جديدة لرجل بحق أنهى دراسته وسوف يصبح مسئولا عن نفسه ، لم يكن بي رغبة للتعيين في الحكومة أنا فلاح مثل أبي كنت أريد انتهاج نهجه ، والعمل مثله .

قررت أن أبدأ في تجارة المواشي فمنذ عامين وأنا أتاجر ، لكن في نطاق ضيق ، وما كان يخرج لي من ربح كنت أدخره حتى صار لي مبلغا لا بأس به كنواة لمشروعي الجديد ، لكني ما إن لبثت أفكر وأخطط لحياتي حتى وجدت العمدة وشيخ البلد يستدعياني لأني من المختارين في التجنيد .

جن جنون أمي وأبي فأنا وحيدهما كيف اختاروني للتجنيد وأنا وحيد ومن اختارني ؟!!

قال العمدة : إنها ظروف الحرب .

و لم أغضب أو حتى أخاف فلقد كان بودي الذهاب للحرب ، وكأني وحدي الذي عليه أن يمحو مرار النكسة ، كنت أريد الانتقام لمحمود ابن الشيخ ابراهيم الذي أضاعت الحرب أطرافه ، وللشهيد حسين ابن أبويا الحاج إسماعيل ،

ولمنصور الذي يسكن العزبة المجاورة لنا التي أخذت الصحراء عقله فهام في الحقول والقرى لا يدرك ولا يحس ما يقول .

كنت أعلم أني لن أذهب أبدا للجيش ولو تطوعت لراحت أمي صريعة ذلك .

لم يمض فترة حتى عرفت أنّ خالي زينهم هو من يقف وراء الأمر فهو لم ينسَ صنيعي معه أيام خطبة مسرودة ، تشاجر أبي وأمي معه وكانت القطيعة الدائمة بين أسرتينا .

ظن خالي بذلك أنه يؤدبني وينتقم مني إلا أنني كنت فرحا فرح لا حدود له إنني ذاهب لأستعيد أرضي ، ولأنتقم لأبناء بلادي الذين قهرتهم الهزيمة ، سأكون وسط الحرب لا مستمع لأخبارها من بعيد ، سأكون واحدا من أطرافها .

ودعت الجميع بما فيهم مسرودة ، جعلني بكاء أمي المحموم أشاركها البكاء كانت تبكي كأني ذاهب بلا عودة كما أنها كانت المرة الأولى التي أفارقها فيها .

غبت عن البلدة قرابة الشهرين أول مرة أبعد فيها عنها منذ مولدي ، وحتى ذلك اليوم الذي تركتها فيه ، وما أصعب الليالي الأولى وأنا في فراش غير فراشي ، وفي مكان غير داري ، لا أصحو ولا أنام على صوت أمي كما اعتدت كُدت أنهار وأسلم بأن هذا ليس مكاني ، لكني صمدت كلما تذكرت حالنا بعد الهزيمة .

أثناء التدريبات كنت أحسد رغبتي في الانتقام أمامي حتى يمكنني التفوق في التدريبات ، وأثناء تعلم ضرب النار كنت أتخيل أمامي جندي العدو الذي قتل كل شهداءنا والذي أطلق قذائفه فأطاحت بأشلاء جنودنا ومدن القناة ، الرغبة العارمة في الانتقام كانت سبيلي في مواصلة الطريق ودعوة الصبر لاحتمال ما أرى .

في خلال الشهرين أرسلت لأمي خطابات عدة كانت ترد عليَّ فيهم مسرودة بخطها الجميل فلم أحرم من أخبارها ، وأخبار الأسرة التي توحشتها جدي وجدتي لأمي ، جدتي قوت، أمي ، أخواتي البنات.... وأبي هذا الرجل الذي كنت أرى وجوده حياتي ، وفي صلابته وجودي .

كثيرا ما تساءلت لماذا لم أسمع نبأ حمل مسرودة وهي زوجة منذ عام ويزيد ؟!! ترى كيف حالها ؟

إني أعلم حال كل امرأة يتأخر حملها في قريتنا ، ما أصعب الأيام التي تعيشينها يا خالتي ، وخاصة أنك المتهمة لأن زوجك قد أنجب من قبل .

عدت بعد الشهرين محملا بأشواق كبيرة لكل أهلي ، ألقيت بنفسي في حضن أمي وأدمعت عيني على كتف أبي ، واستردت عافيتي في حضن جدتي قوت ، وأحسست كياني في فرحة أخواتي البنات .

ثلاثة أيام قضيتها بينهم أهل من حنانهم مستمتعا بدفء فراشي ، رأيت جميع من أعرفهم إلاها ، لم أرها ، لذا كان واجبا علي أن أعرج على بيتها في طريق عودتي فترلت القرية المجاورة لنا حيث تسكن ووجدتها تجلس مع صويحباتها من النسوة الجيران لاحت بينهن كما الشمس وحولها الكواكب ليس بينهن من هي في جمالها ، لم تربي ، لم تحس بي ، لم تلحظ اقترابي منها فلقد كانت منشغلة بالحديث معهن وإن لحظتني بعضهن ، ورمقتني بنظرة متفحصة فهن لا يعرفنني وناديتها : مسرودة .

دهشت بقدر دهشتي لمرآها ، فقدت الكثير من وزنها ، قامت تعدو نحوي ، ألقت بنفسها بين يدي ، غمرتني بقبلاتها وهي تقول : كل دا يا عبده ، بس إيه الجمال دا يا وله البدلة الميري هتنطق عليك .

قلت : إزيك يا خالتي عاملة إيه ؟

- أنا كويسة والتفتت للنسوة اللائي تعجبن منها فمثل تصرفها معي غير معتاد لدينا قالت لهن : ابن أختي .

ردت إحداهن : بس دا كدة يجي من دورك .

قلت مبتسما : لأ أكبر منها شوية .

قالت : واحشني يا عبده .

- وانتي كمان وحشتيني قوي كنت مشغول عليكي .

- تعال ندخل نتكلم جوا .

- لا أنا لازم أمشي أرجع وحدتي قدامي سفر .

- ليه انت هنا من امتى ؟

- من تلات أيام .

- ولسة فاكر تسأل عني ؟

- غصب عني ما انتي عارفة أمي ما كانتش عاوزة تسيبني .

- هتيجي تزورني تاني .

- كل ما أنزل أجازة .

- خلي بالك من نفسك .

- انتي اللي خلي بالك من نفسك وأوعي تسمحي لحد يهينك يا مسرودة كل حاجة بإيد ربنا .

- يا ريتهم يفهموا دا والله لو بإيدي ما كنتش اتأخرت .

- عارف ، اقفي وحاربي يا مسرودة المرة دي هحارب عشانك ، وعشاني ، وعشانا كلنا ، ولما أرجع محدش هيقدر يتعرض لك أبدا طول ما أنا عايش .

- ربنا يحرسك ويحميك ويرجعك لي يا أخويا .

احتضنتها كما عانقت دمعها الغزير ثم مضيت عنها بجسدي وليس بروحي فهي وأمي من يجعلاني أبكي هما من يحركا مشاعري .

وما إن خطوت خطوة بعيدا ودمعي يغالبني حزنا عليها نادتني فالتفت إليها فقالت : استنى هديك حاجة بتحبها .

وغابت عن عيني دخلت بيتها ثم خرجت وفي يدها لفة أعطتني إياها ، لم أدر ما بها كنت لا أريد أخذ أي شيء من مال زوجها ولكني لم أستطع أن أرد لها طلبا .

تبينت بعد وصولي وحدتي أنها مسرودة فهي أفضل من يصنعنها في عائلتنا وتعلم كم أحبها من يدها ولاءمت المسرودة البطتين التي أعطتني أمي إياهما ، اجتمعت وزملائي في الوحدة حول هذا الطعام الشهي الذي لم نكن نراه إلا حينما يذهب أحدنا في إجازة ويعود ، شاركنا الطعام ضابط وحدتنا الرائد عبد السلام السقا هذا الرجل الذي تعلمت منه الكثير كان مثالا للجندي الحق صاحب الحكمة ، الرؤية ، الشجاعة ، البسالة ، قائدنا في عمليات الاستنزاف التي أعطتنا الأمل ، ورفعت من قدر إيماننا بأننا سنحارب ونسترد الأرض والعرض المنهوب .

٦

بقيت في الوحدة طويلا قبل أن أحصل على إجازة أخرى وأعود لأحبابي ، وعدت تلك المرة بداخلي أمل في تفوقنا في حرب الاستنزاف حملته معي لكل من يقابلني ، لكل أهلي ليتخلص الجميع من حالة الانكسار والألم ويستبشروا خيرا في جيشنا فنحن خير أجناد الأرض نحن لم نحارب وإن كنا حاربنا كنا انتصرنا .

دخلت دارنا أبحث عن أمي وتنامى إلى مسامعي صوت صادر من حجرتها فاقتربت من الحجرة فإذا بي أسمع صوت بكاء ، ونحيب ، سمعت حس مسرودة يقول : خلاص يا أمة زينب ما عدتش قادرة استحمل أنا معملتش حاجة في دنيتي عشان يجرى لي كدة بصي شوفي لحظتها فتحت الباب ويا ليتني ما فتحته فلقد هالني ما رأيت كانت قد نزعت ملابسها لترى أمي أثار الضرب المبرح على جسدها فلم أحتمل ما رأيت .

خرجت أعدو ، سمعتهما يناديانى ، لم التفت كنت أقطع البلد عدوا ، وصلت إلى قرية مسرودة مخترقا الحقول حتى مساكن القرية ، وصلت لدارها سألت عن زوجها ، لم أجده ، سألت عنه كل من صادفني لا أحد يعلم .

لم يره أحد منذ مساء أول أمس ، الجميع يؤكد أنهم سمعوه يتشاجر مع زوجته التي لم تنطق بكلمـــة كعادتهـــا ثم سمعـــوا صراخها المعتاد يعقبه صمتا لم يتبدد .

وسألت نفسي : هل هرب وخاف ؟ ولكنه ليس من تلك النوعية من البشر ، ثم إنها لم تكن تلك هي المـــرة الأولى تبعـــا لرواية الجيران .

عدت لقريتي خائبا ، ولازال الغضب يتملكني ، كان لابـــد أن أخرج تلك الشحنة التي تملأني فعرجت على بيـــت خــــالي زينهم وجدته وولده البكر فصرخت فيه : عاجبك كدة اللـــي انت عملته تعالى معايا شوف اللي جرى بسببك .

قال ابنه : اتلم يا عبد العزيز عيب تكلم أبويا كدة .

لقد كنت أصغر من أصغر أبنائه ، لكني لم أعبأ به وبكلامه، لذا لكزته بيدي فسقط على الأرض فأمسكت بتلابيب خــــالي وقلت : انت متستاهلش انت أصلك مش بني أدم انت بتـــاع مصلحتك .

جذبني ابن خالي من الخلف فدفعته باليد الأخرى فســـقط ثانية فقال خالي بهدوء : فهمني إيه اللي جرى والا انت مـــش قادر ع الجيش .

قلت في سخرية : جيش إيه دا انت عملت فيـا جميلـة ، وحققت اللي كان نفسي فيه وكنت خايف على أمي ، جت من عندك ، أنا بتكلم على أختك اللي قاعدة في دارنا جتتـها متشرحة من الكلب اللي اتجوزته ، رحت له دلوقت ملقيتوش الجيران بيقولوا مش أول مرة وكله بسببك هيجي يوم أقتلـك وأقتله .

وخرجت فعدا خلفي وقال : استنى يا عبده استنى يا وله ، وتبعني لدارنا فوجدت أمي وهي جالستان باكيتان ردت الروح في صدر أمي حين رأتني فلقد توقعت أن أقتـل زوج أختـها فقلت : حظه إني ملقيتوش .

انفجرت مسرودة في بكاء محموم بكت صاحبة الدمع الغالي كان لديها أعز عزيز هانت عليها نفسها وآلمها أن يحدث لها ما يحدث فنظرت إلى أخيها وقالت : جاي دلوقت عشان اختلفت وياه بعد ما أكلك في بيعة الأرض الأخيرة لكن لو لسة لـك معاه مصلحة مكنتش شوفتك .

رد زينهم بصلافة : بس يا بت اتلمي .

ردت مسرودة بغضب وقد فاض بها : مش هـتلم انـت السبب رمتني رمية الكلاب عشان مصلحتك وأنا مش مهـم ، رمتني لبخيل بيحسب كل قرش ، ولما طال الوقت وخلفـتش

مكنش يسيب في الدار مليم أجيب به حفان دقيق أعمل بيــه لقمة آكلها ولا يرضى أخزن في الدار رز ولا غلــة زي بقيــة الناس رغم انه عنده أرض لكن كان يبيع المحصــول كلــه ولا أشوف حباية منه ، أختك بنت الناس اشتغلت زي أي أجــيرة خبزت للناس وخدت فلوس ، ولولا أختك زينب كنت مــت من الجوع كانت دايما تشيلني من خير جوزها ، دا غير الضرب والبهدلة كل يوم والتاني وبكت مسرودة وبكيت معها أخذتها في حضني وقلت لها : مش هيشوف ضفرك دا انت برقبة اللي خلفوه والنبي لا أوريه .

فقال زينهم وقد تألم بحق لما لحق بأخته وأوجعه كلامهــا فقال : ما تخديش على خاطرك مني يا حبيبتي والنبي لاخــدلك حقك منه مهما حصل .

قالها وهو يحتضنها ويقبل رأسها ، إلا أن زوج مسرودة لم يعد للقرية وفي اليوم التالي جاءنا أحد الجيران وقال أن الشرطة تبحث عنه وقد كسرت باب الدار وفتشته وقلبته رأسا علــى عقب لذا كان علينا العودة حتى نعرف ماذا حدث وحتى نحفظ محتويات البيت .

واكتشفنا أن السيد جمال الذي زوجه خالي لأخته ما هو إلا نصاب ، تاجر مخدرات ، وجدت الشرطة في البيت كمية مــن الحشيش أكبر من اعتبارها للاستعمال الشخصي لمدمن ، هــذا غير القضية التي أتوا من أجلها ، فلقد قام جمال باستئجار بعض

الأراضي في مركز آخر غير مركزنا وقام ببيعها لأغراب بعقود ملكية مزورة وهو لا يملكها ، وأخذ ثمنها ، وحين شعر بأنه على وشك أن يُكتشف هرب ، وإلى الآن لم يستدل أحد عليه.بقى سؤال هام لماذا لم يخبئ الحشيش طالما كان قد أعد العدة للهرب ؟!! هل كان يود أن تتعرض مسرودة للمساءلة عن الحشيش وتتهم فيه أم ماذا ؟ كل شيء بات معلقا لأن من معه السر هاربا .أسفر التحقيق عن لا شيء فلا أحد يعلم أين ذهب ؟ وأخلى سبيل مسرودة فهي لا تعلم شيئا عن الحشيش أو غيره.ما كان يؤلمني ويؤرقني هو كوني بعيد عن كل ما يجري فأجازاتي المتباعدة كانت تحول بيني وبين أهلي ، وبين ما يجري لمسرودة التي كنت أحرص على تلقي خطاباتها التي تشرح لي فيها بالتفصيل ما يحدث لها ، فزوجها لازال هاربا لا يدري أحد عنه أي شيء لذا فلقد صارت معلقة لا هي زوجة ، ولا مطلقة ، إنها في عصمة شخص تعجز أجهزة الشرطة عن الإمساك به وأخذ حق البلد منه فما بالك بحق امرأة ضعيفة ولكن بعد تلك الحادثة تبدلت خالتي بشكل غريب تعجب منه كل من يعرفها ، بانت شخصية صلبة قوية كما الموج الهادر ، كنت أعلم أنها تملك القوة لتواجه الجميع دون خوف لذا كان من الصعب علي أن اصدق استكانتها حين أرغمت على تلك الزيجة المشئومة .

كانت رسائلها إلي ملأى بعبارات قوية وإصرار عجيب على التصدي لكل الناس .

(٧)

عدت في أول أجازة لي بعد هروب جمال لأجد مسرودة قد عادت لدارها ، أقامت فيه ، خرجت للفدادين الخمسة تقـوم بزراعتها واستئجار الأنفار لها وحين تعرض لها أهل زوجهـا زأرت كما الأسد فلم يستطع أي مخلوق الاقتراب منها وقبـل أن تشرع في عمل أي شيء كانت قد ضمنت لمطلقة زوجهـا أنها لن تأكل حق أولادها وأنها ستعطيها أكثر مما كان يهبهما أبوهما البخيل .

ذات يوم كنت لديها بحثت عنها حتى وجـدتها في الأرض وفي طريقي إلى هناك وجدت رهطا من الرجال تقف لهم وهم يتوعدوها فعدوت نحوها ووقفت لهم و لم يجرؤ أحـد علـى الاقتراب منها بعد ذلك من هؤلاء أو من غيرهم .

مرت شهور أعقبتها شهور وأنا في الجيش بعيد اختطـف يوما أو بعض يوم لأكون بينهم ، لكم توحشـت أمـي وأبي وتجارتي لقد كان السوق والبيع والشراء عشقي الأول والأخير.

مرت بي أربع سنوات في الجيش انتهى تجنيـدي بانتـهاء الحرب بالعبور كنت ضمن من عبروا القنـاة ، ممـن أعـادوا الأرض المسلوبة من بددوا طول الانتظار ، من رفعـوا الـرأس واستردوا الكرامة .

عدت لقريتي محمولا على الأعناق محاطا بالورود مصحوبا بالمزامير، والطبول ، والغناء مستقبلا بفرحة النصر التي عمت جميع أرجاء البلاد .

كذا عدت لأجد نصرا أخر في انتظاري ، نصرا جميلا صنعته يدا لبيبة وجميلة ، يدها هي ، أعلم أنكم تتوقون لأخبارها مثلي لكم كنت أفتقدها كانت مع أسرتي على رأس من استقبلوني لدى عودتي في محطة القطار بالمركز.

ذهبت معهم للبيت وشوقي إليهم لا يضاهيه شوق ولا يماثل حنيني حنين .

سألتها عن أحوالها قالت : مش هقولك إلا لما تيجي وتشوف بنفسك .

قلت لها : هيحصل إن شاء الله .

تناولت طعامي بينهم واستحممت وودعت الحلة العسكرية ولبست جلبابي وطاقيتي ، عدت فلاحا من جديد ، تركت الجندية ، والسلاح ، والقنابل ، والدم ، والأشلاء ، والحطام ، عدت للخضرة ، للمياه الرقراقة ، للأشجار الوارفة ، لأرضي المعطاءة ، لماشيتي وحيواناتي .

كنت متعجلا لرؤية ما كانت تحكي لي مسرودة عنه في خطاباتي كانت مسرودة تزرع أرض زوجها الهارب ، أعطتها الأرض والماشية الكثير ، و لم تهمل حق طفلي زوجها أبدا .

كانت في القرية بعض النسوة الفقيرات يقمن بجمع اللبن من بعض دور البلدة ليصنعن منه الجبن القريش ، وبعضه يأخذنه حليبا ويتوجهن به للمركز حيث يبيعونه في المدينة وفي طنطا .

كانت مسرودة من السيدات اللائي يعطين اللبن لبعضهن فكن يحكين لها أنه بعد انتشار النساء العاملات وكثرة عددهن لم يعد لديهن الوقت لصنع الأكلات الريفية التي اعتدن عليها في بيوتهن في القرية ويحبها أزواجهن من الفطير والكسكسي والرقاق وبالطبع المسرودة والجميع يتلهفون على تلك الأطعمة ويشتهونها بعيدا عن المواسم والأعياد التي تضطر السيدة العاملة لأخذ يوم أجازة لصنعها .دارت رأس مسرودة التي كانت تعافر مع الحياة ، وتجاهد ، وكل ليلة تحلم بشيء واحد أن يتم القبض على زوجها لتطلب منه الطلاق ، كانت تقضي الليالي تدعو الله وتبتهل إليه أن يهبها حريتها على الرغم من أنها تفعل ما تشاء وتحيا بمفردها إلا أنها كانت تحس قيدا يحيط بها يطبق عليها يخنقها .ولأن الله العادل ، ووحده من يملك فلقد استجاب لها ، ذات ليلة استدعتها الشرطة للتعرف على جثة يشتبه بأنها لزوجها لقد وجد مقتولا في مدينة أخرى ومحافظة بعيدة عنا ولكم تنفست مسرودة الصعداء حين تعرفت عليه وتأكدت من موته ، كادت تدور توزع الشربات وتزغرد .

بعد موت جمال لم يعد بمقدورها زراعة الأرض كلها فالميراث آل لطفليه و لم يكن لها سوى نصيبها الشرعي منه بوصفها زوجته إلا أنّ عقلها الذي لا يكف عن التفكير قرر أنْ يكون منقذ نسوة المدينة اللائي يحرمهن العمل من إيجاد وقت لصنع ما يشتهونه من أطعمة .

قامت باستئجار فتيات صغيرات يساعدنها في العمل في البيت الذي أخذته كميراث ، وكذلك المواشي أما باقي ممتلكات زوجها ، وأرضه فذهبت لأبنائه ، واكتفت هي بما قسمه الله لها .

بدأت تصنع الفطير والمسرودة والكسكسي والرقاق وتوزعه على النساء بائعات اللبن والجبن ليبعنه لمن تطلبه منهن من نساء المدينة وخاصة أهل طنطا .

في العامين الماضيين كان صيت مسرودة قد وصل لكل مراكز المحافظة فكل من كان يأكل طعامها يخبر صديقا ، أو قريبا له ، أو جاره ، وحتى الأقارب في المحافظات والمدن الأخرى فصار زبائن مسرودة من كل مكان بما في ذلك القاهرة والإسكندرية ، وبات بيتها قبلة لكل من أراد التمتع بطعام ريفي يمتلئ بنكهة الفرن البلدي ونفس مسرودة الذي لا يضارعه سوى نفس أمي زينب .

صارت تلك حياتها أما أنا فعدت لما أحب ، وأهـــوى إلى تجارتي ، وأرضي فأنا فلاح ، وإن كان بعد عـــودتي تلقيـــت خطاب التعيين الذي كان يضمن لي عملا كملاحظ آلات في جمعية قريتنا الزراعية ولكني رفضت استلام العمل رغم إلحـــاح أبي لقبول الوظيفة حتى يكون لنا ظهر بالجمعية فعملي هنـــاك سيضمن لنا التقاوي ، والكيماوي ، والمبيدات ، وغيرها ولكني قلت إن كان لنا حق سنأخذه أما أنا فلست موظفا كل همـــي تنظيف آلات الرش أثناء موسم القطن أو إصلاح ماكينة ري ، أنا تاجر وفلاح ولن تكون لي مهنة غير ذلك .

(٨)

انتهيت من أمر الوظيفة هذا ، فلاح لي في الأفق موضوعا آخر ، شغل بال كل العائلة ـــــ أقصد نساء العائلة ـــــ بدأن جميعهن يفكرن بأمر واحد ألا وهو زواجي الذي لم يكن يشغل بالي قط فلقد عشت في مجتمع من النساء كن يشغلن تفكيري أحيا وسطهن ، بين مشاكلهن أخواتي الثلاث ، وجدتي قوت ، وأمي كلهن من حولي ، ولهن جانبا كبيرا في حياتي ، وما كنت أفكر رغم امتلاء قريتنا بالفاتنات ، لكن ليست بينـــهن مـــن استطاعت أن تنفذ إلى قلبي ، قد يكون لأني عشت أبحـــث في إحداهن عن خيال مسرودة ، لا أعلم ، لكني أبـــديت أني لا أهتم فصرخت بي أمي : انت عارف بقى عندك كم سنة أبوك جابك وهو لسة ما كمل العشرين .

لم يكن يشغلني الأمر لكني فكرت به خاصة بعد خطوبـــة ماجدة لابن خالي محمود الذي يصغرني بعام ونصف ، فلقـــد شعرت بالغيرة تتسلل إلى نفسي حين وجدتهما كعصـــفورين يتناجيان ، يتهامسان ، ابتسامهما لبعضهما ، نظرات عيونهمـــا الملآنة بالحب بين الحين والآخر كانت أروع ما رأيت .

ذات يوم كنت جالسا في العشة عند الساقية ووجدت فجأة مسرودة أمامي وكان بيدي كوب الشاي فدعوتها للجلـــوس

وشرب الشاي صببت لها كوبا وهي تقـول : عنـدي لـك عروسة. مش عارف أنا مزعلك في إيه إنتي وأمي هو في إيه ؟

- يا واد نفسنا نفرح بيك .

- بقيتي تتكلمي زي أمي أهه .

- أمة زينب هيا دي في زيها ، المهم ما تخدنيش في الكلام تعالى بكرة عشان تشوف العروسة عندي .

- ودي تطلع مين ؟

- بنت م البنات اللي بيشتغلوا معايـا ، بـس إيـه مـا أقولكش...

- حلوة يا خالتي .

- جميلة يا عيون خالتك .

- شبهك ؟

ضحكت وتركتني ومضت وصوت ضحكتها يرن في أذني .

أنا فعلا أريد فتاة مثل مسـرودة في قوتها وجمالها ، في عنفوالها وشباها ، في رقتها .

ووجدتني أعدو خلفها حتى أدركتها وأنفاسـي تتلاحـق فقالت : إيه اللي جابلك ورايا ؟

- قلت أروح معاكي .

- تروح ولا مستعجل تشوف العروسة وأكلمك عنها .

قبل أن أجيبها سمعت صوت واحدا من أصدقائي ينـــاديني فذهبت إليه كارها فقالت : هسيبك وابقى حصلني .

عدت مع عبد المحسن إلى العشة ، تحدثنا طويلا ونحن نحتسي الشاي ، لم يجمعني به أنه من نفس القرية فقط ، وأننا من نفس السن ، وأننا نشأنا ، وتربينا معا لقد جمعني به ما هـــو أكـــبر وأعظم جمعتني به الحرب ، فصديقي الأقرب إلى نفسي ، وقلبي ويكاد يكون صديقي الوحيد لم أحس بمقدار توحدي معه إلا حينما بت وهو في نفس الخندق ، تتلاحق أنفاسنا وأصـــوات القذائف لا تكف والنيران تنهمر كما المطر ، الحرب التي بدلت فينا كل شيء وغيرتنا ، فحولت عبد المحسن صاحب الشخصية المطيعة الحالمة الرقيقة لشخص عنيف أوشكت ألا أعرفه وهـــو يمسك بسلاحه تملأه نفس الرغبة التي كانت تحركني الرغبة في الانتقام ، إنه إحساسنا نحن الفلاحون بقيمـــة الأرض ، لـــذا فكانت رغبتنا في النصر أكيدة وشعورنا واحدا .

سبقني عبد المحسن إلى الجيش بفترة قليلة ، ذهب متطوعـــا و لم أكن أعلم ولا هو أننا سنلتقي هناك في نفـــس الوحـــدة ، وذات السلاح ، تلفنا رغبتنا في النصر ، تلك الرغبة التي كـــان

صوتها بداخلنا أعلى من صوت القنابل ، ودوي المدافع ، تحثنا أغاني حليم وثومة .

رأيت بعيني رقة عبد المحسن قوة لا مثيل لها ، كان يأنف إن رأى ذبيحة وشاهد الدم ، وجدته يحمل زملاءنا ودماءهم تقطر تغطي وجهه ، وملابسه دون أن يعبأ بها ، رأيته يلملم أشلاء بعضهم دون أن يذرف دمعة ، صلابة بلا حدود .

أما أنا فطوال حياتي قويا مقداما لا أهتز ، عنيفا في بعض تصرفاتي فلم أكن بحاجة للحرب لأكون ذلك ، فقط تصرفت على سجيتي بدافع إحساسي الداخلي بوطني ، وبعرضي الذي أردت أن أنتقم له .

لكن ما حدث لي أني تفتحت على عالم آخر غير قريتنا المحدودة الصغيرة ، كنا رجالاً جمعت بينهم الظروف الصعبة العسيرة ، والأمل في الله ، وفي الغد القريب .

رجال ترفعوا عن نواقصهم ، ومساوئهم ليكونوا في خدمة بلادهم فصفت نفوسهم ، وسمت حتى صارت في رأيي كما الملائكة ، أرواح شفافة تملأها فقط الرغبة في النصر بلا أحقاد ، أو ضغائن ، أو أي طموح فردي فكلها تجمعت في طموح واحد ، وأمل واحد ، فالنصر لن يتحقق إلا بيد الجماعة .

علمتني آلام الناس أن أتألم لألمهم ، تعلمت عيوني أن تذرف الدمع على رجل كان قبل قليل يشاركك زادك اليسير وفجأة

تجده في رحاب الرحمن مع الشهداء ، و آخر تهزك صرخته حين تخترق جسده النحيل شظية ، أو رصاصة ، أو أكلت الـــنيران أحد أطرافه .

تعلمت أنَّ القوة ليست في قوة الجسد ، وإنما في قدرتي على المشاركة في العمل ، في الإحساس ، المشاركة تلك الكلمة التي تجاسرت بداخلي ، وكبرت فيد واحدة لا تصفق .

في جلستي مع عبد المحسن اجترنا الـــذكريات ، تـــذكرنا أصدقاءنا الذين عرفناهم هناك ، وضحكنا على نوادر بعضهم فقلت وقد أعياني الضحك : فاكر محمود الاسكندراني اللـــي كان يصحا يقول سمك وينام يقول سمك .

عبد المحسن : كنت حاسس إني لو عصرته هيترل سمـــك في سمك .

- بس بذمتك مش الصيادية بتاعة أمه ملهاش أخت ؟

- بصراحة ماكنش فيه لا أحلى ولاأجمل من كدة بس اللي حلو بجد أخته يا وله دا عليه حتة أخت بلطية بصحيح.

وسرح عبد المحسن بعيدا ثم قال : في يوم اديتـــهم جـــواب محمود ونزلت أقعد على البحر شوية لقيتها نازلة ولابسة حتـــة فستان ، يا خرابي ما أولكش أيوووووووووووووه علـــى رأي محمود .

ضحكنا ثم تذكرت حمودة الصعيدي فقلت : وحمودة اللي كان متعود يلبس الفانلة واللباس بالمشـقلب آل إيـه عشـان الناموس .

- إلا قولي هو كان فيه ناموس ؟!!!

واستغرقنا في الضحك ثم وجدت عبد المحسن قـد دمعـت عيناه فقلت : إيه يا وله جرى إيه ؟!!!

- أصل افتكرت سمير الجارحي ، فاكره ؟

- وهو ده حد يتنسى ، دا بمليون راجل ، كان مـدفعجي تمام .

- رحت لأمه قابلتني على باب الدار أول ما شافتني وبصت في وشي عرفت على طول إن المرة دي مش معايا جواب منـه وليقتها زغردت ، جت أخته تصرخ هيا ومراته زعقـت ولا راجل وهي بتقول ابني في الجنة وجب نوزع الشربات وبصت لي وقالت : اقعدوا يا حبيبي اشربوا شربات أخوكم سمير .

عندها بكيت وعبد المحسن بكاء مريرا ، حاولنا التغلب على دمعنا دون فائدة ، وبعد طول صمت وبكاء قال عبد المحسن : ما تيجي نروح لعوض .

قلت متعجبا : هو رجع ؟!

- لسة امبارح .

- قوم نروح له .

- يعني رجعت تتكلم معاه تاني رغم إنك كنت مقاطعه ومش عارف ليه .

- ابدا كانوا شوية زعل وراحوا .

- تعرف إن دا الموضوع الوحيد اللي انت خبيته عليا .

- لا موضوع ولا حاجة ، دا كان شغل عيال .

- ماشي يا سيد الرجالة .

تعجبت مسرودة حين رأتني أدخل المندرة بصحبة عبد المحسن وعوض ، فهي تعلم قطيعتي لعوض التي كانت هي سببها .

ألم أقل منذ قليل أنّ الحرب بدلتنا ، وعلى رأس من تغيروا كان عوض الذي تخلى عن ذاتيته وأنانيته المفرطة ، علمته الحرب مثلي الروح الجماعية ، وعلمه مشهد الموتى ، والجرحى اليومي ، والصراخ ، والألم ،والدماء أنّ هناك في الدنيا غيره يشاركونه هذا الكون .

ذهب متطوعا للعمل في مستشفى السويس الذي كان يحول إليه المصابون يوميا وهو لازال طالبا بالكلية ، تلك المدينة التي

أحيلت خرابا ، حتى المستشفى لم يسلم من القصف ، قابلته هناك وأنا أبحث عن واحد من الزملاء المصابين وجدته أمامي يصارع الموت مع واحد من الجنود ، يحاول بشتى الطرق إنقاذه إلا أنه بدأ يتهاوى مع حالته العسيرة ، كان يعرف أنه سيموت ، لكنه لم يتخلَ عنه كان يحاول و لم يستسلم إلا أنه لم ينجح .

وقف مذهولا أمام الجندي الشهيد ، فما كان مني إلا أن ربت على كتفه فالتفت إليّ أخذته في حضني وكأن شيئا لم يحدث ، في لحظة نسيت ما كان لأن ما نحن فيه أقوى من أي شيء كان ، أو من أي عبث طفولي ، لقد كبرنا سنوات ، وسنوات فوق أعمارنا .

سيول من الدماء ، مئات من الجرحى والمصابين ، جثث الموتى ، الصحراء ، عبثوا بنا وساهموا جميعا في أن نكبر قبل الأوان .

وإن كنا قد بدأنا صفحة جديدة ، بدأت مصر كلها صفحة جديدة .

جلست مع صديقيّ نتسامر ، أحضرت أمي الطعام فأكلنا وشربنا الشاي ثم انصرفا .

جلست إلى أمي وأخواتي نتحدث حتى داهمنا النوم فاستسلمنا له ، في صباح اليوم التالي ظلت أمي تلح عليّ

لأذهب لبيت مسرودة ، أخبرتها أني سأذهب بعد انتهائي من العمل في الحقل ، لكنها أمرتني أمرا أن أذهب فذهبت .

ما إن رأتني مسرودة حتى انفجرت ضاحكة وفهمت لماذا ؟

فقلت في خجل : أمك زينب هيا اللي أمرتني آجي دلوقت.

كانت لاتزال تضحك وهي تقول : على خالتك يا عبده؟!

فقلت في حدة : والنبي أمشي .

كفت عن الضحك وقالت : لا يا وله دا أنا بضحك معاك، أنا ما صدقت إنك جيت .

جلست معها فإذا بإحدى الفتيات تدخل علينا وفي يدها ديارة تكسرت أسلاكها .

أدارت الفتاة وجهها حين وجدتني مع مسرودة التي قالت : خشي يا حميدة مفيش حد غريب .

(٩)

كانت حميدة كالبدر في ليلة تمامه ، وجهها المشرب بالحمرة ، عيونها التي هي في خضار المروج جديلتها التي كانت تلقيها في غير اهتمام على كتفها بلونها البني المصفر ، حملتني متعلقا بها إلى عنان السماء ، ووجدت العرق يتفصد مني حين نزلت بعيني عن وجهها لتتعلق بنهديها الذي أبدع الله في خلقهما وتدويرهما ، وخصرها ، لم أستطع أن أتحكم في أعصابي حين رأيتها ، وآه حين سمعت صوتها الذي كان كشدو الكروان كل صباح .

خرجت حميدة من الحجرة لتلتفت إليّ خالتي متسائلة عن رأيي ، لم أتمكن من إجابتها لأني كنت بواد غير الوادي ، كنت مع صاحبة العينين الخضراوين ، أفقت على يديها تلكزني في كتفي فقلت في غضب لأنها أخرجتني من حلمي : إيه عاوزة إيه ؟!!

- عاوزك رأيك إيه ؟

- في إيه ؟

- في العروسة يا قفل .

- هو أنا هتجوزها إمتى ؟!!

انفجرت مسرودة ضاحكة حتى كادت تسقط على الأرض وهي تقول : هو سلق بيض ؟!

مش تعرف دي بنت مين ، وتقول لأمك وأبوك وأخوالك ونروح نطلبها ، مش يمكن ما توافقش ؟

- ما توافقش ليه يا أختي هو أنا أتعيب ؟!!!

- دا إنت سيد الرجالة يا روح أختك ، بس يعني أنا لسة ما جستش نبضها قلت لما تشوفها الأول .

- أشوفها ؟! يا ريتني ما شوفتها .

- ليه يا عبده ؟!

- أصلها حلوة قوي .

قلتها بعفوية جعلتها تضحك ثانية ، لكني لم ألتفت لما قالته وقلت في نفسي : لا ليس لجمالها فقط ، فلقد رأيت جميلات كثيرات والتقيت ببعض أخوات أصدقائي في الجيش حين كنت أحمل لأهاليهم خطاباتهم إذا نزلت أجازة ، ولكنهن لم يكن لهن نفس الأثر الذي أحدثته رؤية حميدة في نفسي ، لقد كان لها وقع غريب هوى له قلبي ، شعرت أنها دخلت وتربعت .

ومنذ ذلك اليوم وهي لاتفارق أحلامي ، صرت أختلق الحجج حتى أذهب لبيت خالتي لرؤيتها .

إذا ابتسمت في وجهي ابتسمت لي الحياة ، وإذا عبست تجهمت حتى أرى ابتسامها ثانية .

رويت لعوض حين عاد في أجازة ، لم أبادر بفتح الموضوع وإنما حالي العجيب جعل عبد المحسن يخبره .

قال عوض في شبه هيام ممزوج بألم غريب لم أستطع فهمه : دا الحب يا عبيط ، اسألني أنا عنه .

كنا نعلم ان عوض وقع فريسة الحب وتزوج من زميلة له في الكلية وأنه تزوجها قبل حتى أن يتخرجا منها .

سمعته وهو يقول الحب تلك الكلمة التي زلزلتني حين سمعتها وكأنني سقط من أعلى مكان ممكن تخيله ، الحب وهل يعرف أمثالنا الحب ؟

سؤال دار برأسي لم أحس أنه خرج إلى لساني حتى وجدتهما ينطقان في ذات الوقت : وليه ما نعرفوش ؟ دا الحب دايما بيبدأ من هنا .

عوض : إيه اللي مسكتك يا عبده ما تروح تخطبها ؟

قلت وقد خرجت مني زفرة قوية : يا ريت .

عوض : وإيه اللي يمنع ؟

- رفضت .

- ليه ؟! بتحب حد تاني ؟

- لأ ، لأ بس أصلها ....

- إيه يا أخي ما تنطق ؟

- مش عايزة تتجوز .

- هو في بت مش عايزة تتجوز ؟!!

- هيا .

قال عبد المحسن وقد نفذ صبره : ما تقول على طول إنها رفضت تتجوز عشان ما تسيبش أبوها الضرير .

عوض : وهو دا يمنع إنها تتجوز ؟

قلت : أبوها مخلفش غيرها وأمها ماتت من زمان ، هيا المسئولة عنه ، بتراعيه وبتشتغل عشان تصرف عليه .

عوض : طيب ما انت هتتجوزها واللي يصرف على واحد يصرف على اتنين .

قلت : أبوها نفسه عزيزة مش قابل إن جوز بنته يصرف عليه ومش عايز يسيب داره وهيا ما تقدرش تفارقه .

عوض : بسيطة روح إنت عيش معاه .

قلت مستنكرا : إزاي دا ؟ أنا أعيش في بيت مراتي دا كلام؟ عيشة البندر غيرتك باين عليك .

عوض : لا عيشة البندر ولا حاجة دا العقل ، انت رايدها وهيا في موقف صعب ، عليك إنت تضحي لأنها ما تقدرش تضحي بأبوها وإلا تبقى قليلة الأصل وساعتها أقولك دي ما تستاهلش ، لكنها بت جدعة ، روح إنت وضب الدار وهيأها وكبرها وعيش فيها مع البت وأبوها وتبقى كسبت ثواب في راجل زي دا وبقيت مع اللي بتحبها .

قلت : مش عارف ، بس كلامك دا محاش في بالي أبدا .

عوض : عشان دايما باصص تحت رجليك يا صاحبي .

عبد المحسن : تصدق يا عبده إنها فكرة حلوة ، ياللا يا عبده روح قول لمسرودة خليها تقولها وتشوف رأيها إيه .

قمت مسرعا متوجها لبيت خالتي مخترقا الحقول لقريتها دون أن أستشير أحد من أهلي أو أفكر كيف سأتركهم وأذهب للعيش في بيت غير بيتي ، وقرية غير قريتي فالعروس تنقل لبيت زوجها ولا ينتقل العريس لبيت عروسه .

ولكني لم اعبأ بشيء ، مشيت وكل ما يشغلني هو الكلمات التي سأقولها حتى يمكنها إخبارها .

وصلت إلى بيت مسرودة ، طرقت الباب وهممت أن أدخل فلقد كان الباب مفتوحا على مصراعيه فإذا بي وجها لوجـــه أمامها هي ، خرجت لترى من الطارق ، وقفت متسمرا مـــن احمرار وجهها حين رأتني .

قبل أن تهم بالدخول وجدت نفسي أقول لها : لقيت حل .

قالت في دهشة : حل إيه ولإيه ؟

- في مشكلتنا .

قالت في خجل : وهو إحنا لينا مشكلة لا سمح الله ؟

- والنبي ما تعذبيني أكتر من كدة .

- أنا لا أعيش ولا كنت .

- بعد الشر عليكي .

صمت برهة ثم أعقبت قائلا : إيه رأيك أسكن أنا وياكي ،وأبوكي عشان ما تسيبيهوش لوحده ؟ قلتي إيه ؟

أطرقت وجهها في الأرض وهمت أن تمضي وهو تقول في ابتسام : القول قول أبويا ، جرت من أمامي وقد فهمت أنهـــا هكذا وافقت ، لمعة عينيها كانت تخبرني بموافقـها .

خرجت خالتي تستقبلني وقد سعدت بما أتيت لأجله وسعدت أكثر أني سأكون بجوارها .

في الطريق لقريتي لم يكن برأسي سوى أمي وأبي وأخوتي البنات الذين سأتركهم جميعا ولكن الله يحفظ لهن أبي ، كلما همت أن أتراجع عن قراري أتذكر ابتسامتها فأعود صاغرا للفكرة .

أخيرا وصلت دارنا ووجدت أبي يجلس أمام الدار فحييته وجلست إلى جواره فاتحته في الأمر وأنا في غاية الخجل منه .

صمت أبي و لم يعقب ولكنه قال كلمة أوجعتني : إلا لما مراتك تغضب منك ، مين اللي هيسيب الدار إنت ولا هيا ؟

كانت أول مرة يقسو أبي عليّ هكذا ، لديه كل الحق ولكن ماذا أفعل ؟

لازلت مخمورا من ابتسامها ولسان حالي يقول : حميدة عمرها ما هتغضب لأني عمري ما هزعلها أبدا مني .

وصوت عقلي يقول : بلاش كلام فارغ مفيش دار بيخلى من المشاكل ، هيفضل بيت أبوها بيتها مش بيتك .

ساد صمت طويل بيني وبين أبي الذي كنت أراه بين فينة وأخرى يرمقني بنظرات إشفاق وألم .

وفجأة قمت واقفا كأن شيئا لذغني وقلت : لقيتها .

قال أبي مندهشا : إيه اللي لقيته ؟

- حتة فكرة يابا ، هبني دار جنب دار أبوها تبقى ملكـــي بتاعتي وهي تبقى تشقر على أبوها كل شوية .

ضحك أبي وقال : وتمن الأرض هديتي .

انحنيت مقبلا يده وشاكرا فضله فقال : بتشكرني على إيه يا واد دا إنت إبني أول فرحتي .

أمي سمعت ما قلته فخرجت باكية وهي تقـــول : وأهـــون عليك تسيبني يا عبده ، تسيب أمك يا عيون أمك ؟

- يا أمة لا يمكن أسيبك وبعدين هو أنا هبقى بعيد دي هيا نص ساعة تبقي عندي وأبقى عندك .

باتت أمي ليلتها باكية ، وكذا جدتي قوت ولكنـــهما لم يستطعا أن يرفضا أمام إصراري الزواج من حميدة .

ومنذ الصباح الباكر وأنا هناك أحاول شـــراء قطعـــة أرض مجاورة لبيت حميدة وأكرمني الله ببيت صغير تركه أهله وبنوا في مكان آخر إلى جوار أرضهم بعيدا عن مساكن القرية تاركين دارهم الصغيرة ، اشتريتها وأنا أفكر في هدمها وبنائهـــا مـــرة أخرى .

كنا لازلنا نبني بالطوب اللبن (النيء) لم نكن قد عرفنا الطوب الأحمر الذي غزا قريتنا وكل القرى والنجوع والعزب مع العائدين بأموال النفط من دول الخليج .

هاجر الكثير من الشباب بعد حرب أكتوبر إلى الخليج ، وعادوا محملين بالكثير من المال من دول كانت في أشد الحاجة للعمالة ، ولمن تنفق عليه نقود الخير الذي صاب أراضيهم .

بنيت الدار في أيام قلائل وصارت جاهزة لاستقبال العروس التي اشتريت لها شبكة قيمة ولو كان بيدي لابتعت محل الذهب كله لأجلها .

لم تمض أشهر قليلة حتى بدأت أستعد للزفاف ، لم نتكلف كثيرا ، أحضرت حجرة نوم خشب محترم عمولة ، وفي حجرة الجلوس وضعت إياسا في الأرض مع ثلاث كنبات ، أما الحجرة الثالثة كان بها سرير وكنبة ، أما وسط الدار وإلى جوار السلم المؤدي إلى السطح بنيت فرنا بلديا ، وألحقت بالدار حظيرة للمواشي التي سوف أتاجر فيها ، ولم أنس عشش الفراخ والبط فوق سطح الدار .

اشتريت لحميدة ملابسا وأقمشة من المركز كلما نزلت إلى هناك لأي سبب ، وكثيرا ما كنت أذهب خصيصا لإحساسي بأني لابد وأن أهاديها بشيء بمناسبة وبدون مناسبة .

سلبت لبي وفتنت بها حتى بت أحس أني أحيا لأجلها .

مسرودة كانت أكثر مني فرحا بهذه الزيجة وأسعدهم بهـــا ، كانت تحب حميدة جدا لقد انتقتها لأجلي .

أنا العنيف الشديد أكون مع حميدة كما النسمة التي تعبــث بغرتها ، حتى صوتي يتحول لهمس ، بت أتعجل اليــوم الــذي يجمعني وإياها لأطفئ لوعة الشوق المتقد بداخلي .

وها قد جاء اليوم البعيد وبين ليلة وضحاها وجدتني وهـــي في سرير واحد تلفها ذراعاي وتحتويها عيوني ، تلثمها شفتاي في كل أجزائها ، لم أكن أعلم أنّ هناك في الكون سعادة أكبر من تلك التي شعرت بها وأنا أبني بها بعيدا عن مراسم الــزواج التقليدية في القرى ، لم أشأ أن يشاركني أحد زوجتي ، لا أمي ولا أخواتي البنات ، لا أي مخلوق سوانا وحــدنا ، وجــدت معارضة من الجميع ولكنني أصررت ، فشرفها يخصني وحدي لا يخص نساء العائلة ، ولا حتى رجالها الذين يقفون في بلاهة بانتظار المنديل الأبيض المخضب بدماء الشرف .

قد تقابلون من يحملون نفس اسمي ، من يشبهونني شـــكلا إلا أنهم ليسوا أنا .

تبدلت حياتي بعد الزواج ، تغير فيها شيء ، لم أكن أدرك معناه حينها لكني بعد ذلك عرفت المعنى الحقيقي للاستقرار ، عرفت ما هو الحب والعشق .

تعلمت كيف أدفن رأسي في حضن امرأتي وأحكي وأروي دون أن أحس نقصا في رجولتي التي كنت أعتبر انغلاقها على سرها وكبتها لمشاعرها وأخذها حقها بالذراع دون عقل هو ما يعني اكتمالها ، إلا أني حين أدركت أن اكتمال رجولتي في كوني أتشارك مع الناس ، تعلمت ذلك في الحرب ، وحين تزوجت تأكد لي المعنى الكامل ، وكم شعرت بأن هناك أحمال سقطت عني وعن كاهلي ، ذهبَت بعيدا وكنت أنوء بها وأتعذب وحدي بحملها .

(١٠)

كنت وحدي في الحقل أمسك فأسي منهمكا في العمـــل ، وبينما كنت أرفع الفأس لمحت حميدة قادمة تتهادى كما لو أنّ السحاب يحملها ، وعلى وجهها نفس الابتسامة التي لازلـــت أسكر من خمرها .

توقفت عن العمل ووقفت أنتظر حضـــورها إليّ ، وأنـــا أتساءل عما أتى بها إلى هنا بصحبة مسرودة .

وصلا إليّ وبلهفة شديدة سألتهما : إيه اللي جابكم هنـــا دلوقت ؟

منذ مدة طويلة لم تأت مسرودة إلى حقلنا وإلى مرتع صبانا معا ، أما حميدة فتلك هي المرة الثانية لها على ما أذكر فلقـــد صحبتها مرة من قبل معي .

جذبتني مسرودة إليها واحتضنتني وهي منشـــرحة الصـــدر فرحة فرحة لم ألحظها عليها من قبل فعدت أسأل : في إيه ؟

جلست حميدة تحت الشجرة إلى جـــوار مســـرودة وهمـــا تتبادلان الابتسام فاشتد غيظي منهما فصرخت بهمـــا : انتـــوا هتنطقوا ولا ......

لم أكمل حديثي قاطعتني مسرودة وهي تقول : اقعـد يـا عبده ما تبقاش حمقي كدة ، بطل بقى واعقل ، انت هتبقى أب .

خرقت الكلمة أذناي وسمعتها جيدا ولكني قلت : نعم ؟

علت حمرة الخجل وجه حميدة وصمتت وإن لم تخف فرحتها وقالت مسرودة : بقولك اهدا واعقل كدة انت هتبقى أب ، مبروك يا وله ألف مبروك .

شوف بقى ابنك ده هيقولي يا عمتي ولا يا ستي بلاش يقولي يا ستي ما تكبرنيش يا وله كفاية عليا انت مكبرني على الفاضي .

استجمعت شتاتي وقلت : انت بتتكلمي جد يا مسرودة ؟

- أمال هزر إياك ؟ إحنا لسة يا دوب راجعين من عند دكتورة الوحدة الصحية وقالت لها حامل في شهرين كمان .

- الله الله يعني كمان سبع شهور هيشرف ولي العهد وهابقى أب ، تصدقي الكلام دا يا مسرودة ؟

- ومصدقش ليه يا ابن أختي ، ما تقول لمراتك يا واد كلمة حلوة بدل كلامك الفاضي دا .

- مراتي ، دا هي الحلو كله تطلب عينية أديها لها .

- لأ يا خويا خلي عنيك تنفعك أنا عايزاك كدة تجيب لها حاجة تنفعها هيا حتة خاتم ولا غويشة كدة ، فك الكيس يا ابن أختي .

ضحكت حميدة وقالت : أنا مش عايزة حاجة غير رضاه وإنه يبقى فرحان ومبسوط .

قبلت جبهتها وأنا أربت على كتفها : ربنا ما يحرمني منك أبدا يا غالية .

مسرودة : ربنا يخليكم لبعض ويخليكوا ليا .

امسكت يد مسرودة وقبلتها وقلت لها : إنتي وش الخير عليا وإنتي صاحبة الفضل في السعادة اللي أنا فيها دي ، يا رب يسعدك يا خالتي ويكتب لك الخير .

دمعت عينا مسرودة فأخذتها في حضني وكذلك فعلت حميدة التي قالت : إنتي الخير والبركة يا مسرودة ربنا ما يحرمنا منك أبدا .

ابتسمت وهي تقول : كفاية بقى الكلام دا يااللا نروح نفرح أمة زينب ونبشرها .

قلت : أنا نفسي أقول للناس كلها أنا هبقى أب .

ضحكنا كثيرا وسرنا حتى بيتنا وفي الطريق قالت مسسسرودة :آه لو تجيبوا بت حلوة زيك كدة يا حميدة .

- ما كفاية بنات بقى انتي ما زهقتيش .

مسرودة : وماهم البنات بقى ؟

ما ملهمش بس ما كفاية عليا إنتي وأخواتي البنـــات ، أنـــا عايز راجل يملا عليا حياتي ويكون لي عون وطوع ليا .

حميدة : ولد ويكون شبهك .

- يا حبيبتي يا مراتي ربنا يسمع منك .

مسرودة : بتتفقوا عليا انتوا الاتنين ، ماشي .

حميدة : وهو يعني مين غيرك اللي هيربيه ؟

مسرودة : يا حبيبتي يا حميدة ، دا أنا عينية ليكي ولابنك .

قلت : وأنا لأ ؟

مسرودة : إنت نور عيني .

فرحت أمي وأخواتي بخبر حمل زوجتي جدا وكـــذلك أبي وجدتي قوت التي كانت تنازع المرض وكبر الســـن ولكنـــها ابتسمت ابتسامة ضاع فيها شحوبها ومظاهر الألم البادية دائما على وجهها وقالت : آه لو كان جدك عايش وشاف اليوم دا،

كان عمل فرح ، طول عمره يحب الضحك والفرح زي عينيه.
تعيشي وتفتكري يا ستي .

كنت فرحا إلا أنني لم أستوعب حقيقة سبب الفرحة ، قد يكون سبب فرحتي وقع كلمة أب عليّ إلا أنني بحق لا أعرف، سبقني عوض إلى ذلك ، ويحدثنا دوما عن طفليه ، وأنهما أهم ما يملك في هذا الكون. بت أتخيل نفسي وأنا أحمل وليـــد لي يحمل أسمي وأسمع بكاءه وضحكه ، أهدهده وأداعبه ، سآخذه الحقل وأعلمه ما علمت وإذا أحب التعليم سأساعده ما حييت.

وفي المساء ذاته جلست وحميدة نتناول الطعام بعد عودتنـــا من زيارة أبي وأمي ثم عرجنا على بيت أبيها اطمأننـــا عليـــه وأبلغناه الخبر وجلسنا معه حتى نام ثم دخلنا مترلنا منــهكين ، وضعت حميدة صينية العشاء وأعددت أنا الشاي وشـــرعنا في الأكل .

- عمري ما شفتك فرحانة أد النهاردة .

- أصلك ما تعرفش أنا بحب العيال أد إيه ، طول عمـــري بحلم يبقى لي عيل صغير لأ .... عيال كتير أوي .

- حيلك عليا كتير أد إيه كدة ؟

- طول عمري وحيدة وماليش حد ، مش عـايزة عيـالي يحسوا الوحدة أبدا .

- ربنا يديكي يا حميدة كل اللي نفسك فيه .

- ربنا يخليك ليا يا أبو عتريس .

- عتريس ؟!!!!! مين عتريس دا ؟ يا ساتر دا اسم .

ضحكت وهي تقول : مش عاجبك عتريس يبقى شحيبر .

- كدة يا حميدة أنا ابني يبقى اسمه شحيبر ، طـب يـا أم محمد. دايما غالبني كدة ، بس أعمل إيه بقى ما أقدرش أزعلك.

- ما تقوليها يا بت ، قولي إنك بتحبيني ومـا تقـدريش تزعليني .

لازالت تخجل فيتشرب وجهها باللون الأحمر وقالـت : الا بقى هو إنت لازم كدة تحرجني .

- هو انتي لسة بتكسفي مني ، طب إيه رأيك مش هتقومي من هنا إلا لما تقوليها .

صمتنا وقد غرقت في عرقها فقلت : يا مـا أنـا فرحـان بالكهربا اللي دخلت بلدنا عشان خلتني أشوف جمالـك دا في النور وأملي عيني منك وأبحلق فيكي وإنتي بتقوليها ، قولي بقى. والنبي ما تكسفني ما إنت عارف .

- عارف إيه ؟

- عارف وخلاص .

- لا مش عارف وخلاص أنا زعلان .

- لا والنبي ما تزعل .

- خلاص قولي .

ترددت قليلا فأدرت وجهي عنها وأنا لا أريد وإنما للضغط عليها فأنا يصعب علي أن تكون أمامي ولا أبصرها ثانية على رأي أم كلثوم (وإنت معايا يصعب عليا رمشة عينية لو حتى ثانية) كم كنت أسمعها وأضحك وحينما أحببت جربت ماذا تعني الكلمة ، ماذا يعني أن يكون لديك مخلوقا تحسب الثواني قبل الدقائق حتى تلقاه .

وأخيرا وبصوت خفيض قالت : بحبك يا سي عبده خلاص بقى .

أخذتها في حضني وقلت : يا شيخة ما كان م الأول ، اسمعني أنا طول الليل والنهار بقول بحبك يا حميدة ، بحبك يا حميدة .

- اللا مش انت راجل .

- وهي الرجالة ملهاش نفس تسمع كلمة حلوة .

- ربنا يخليك ليا وما يحرمني منك أبدا .

حميدة الرقيقة الجميلة ، أنارت حياتي وأشاعت فيها البسمة، سعادتي معها كانت لا توصف ، فرحتي بها كل يوم تزداد وتزداد ، لم يكن ينغص علي حياتي غير مسرودة وحالها.

لقد صارت أكثر غنى وتيسر حالها كثيرا ولكنها وحيدة ، يضيع شبابها وجمالها شيئا فشيئا ، هي قطعة مني أحسها تضيع على الرغم من ابتسامها الدائم ورسمها الفرحة على وجوه من حولها ممن تساعدهم وتقدم لهم يد العون ولكني لا أعرف لماذا أرى أن حياة مسرودة وعملها شيئا واحدا ، لقد سميت على اسم الأكلة الشهيرة وعملت بها وكأنه قد كتب عليها أن تحيا حياة كلها جهاد وتعب .

لماذا أكدت تعبها بالعمل فيما سميت عليه ؟!!

آه لو كان جدي قد أسماها اسما غير هذا الاسم غير اسم مسرودة تلك الوجبة الشهية التي ترهق في صنعها .

وضعت حميدة بعد سبعة أشهر من الانتظار البطيء ، جاء محمد للدنيا ولدي محمد عبد العزيز السيد عبد العزيز القط

تأملته لأول مرة في حنو جميل ، رأيت فيه الأمل .

- فرحان يا أبو محمد ؟

- إلا فرحان ، مش عارف بالظبط اللي حاسس بيه ، بس جوايا إحساس مخليني فوق ، فوق السحاب .

عبرت عن فرحتي بإقامة السبوع الذي دعوت إليه كل أهل القرية في احتفال كبير بالسبوع والطهور للمولـــود ، ذبحـــت خروفين عقيقه أسوة بسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

وذبح أبي عجلا ليأكل كل الناس فرحة بأول حفيد يأتيه .

بدأت حياتي تتغير بوجود محمد ، صار لنا حسا ، بـــدأت أسمع صوتا غير صوتي وصوت حميدة ، بكاءه لم يشقيني ، ألمه يحز في نفسي ، يجرني لآلام موجعة وكأني أنا الموجوع ، طالما أحببت أبويّ أكثر من أي إنسن في الدنيا ولكني الآن أحبـــهما أكثر .

كلما مرت بي الأيام ازداد عشقا لزوجتي وطفلي ، حضرت ذات يوم بعد طول عناء في الحقل لأجد حميدة تبكي ، وهـــي تحمل محمد فطار صوابي ، ظننت أن به شيء ، لكنها أنكـــرت وقالت : إنه بخير ، فعدت أسألها عن سر بكاءها .

- أنا ...... سيبني بقى بعيط وخلاص .

- يعني إيه أسيبك ؟ قولي والنبي في إيه ؟

- مفيش يا عبده ، سيبني أبوس إيدك .

- خلاص يا حميدة أنا عرفت إنتي بتعيطي ليه .

- عرفت ! عرفت إيه ؟

- ماكنتش فاكر إنك لسة بتعملي فرق بيني وبينك ، مــع إني بعتبره أبويا زي ما هو أبوكي وإن أنا إبنه .

- إيه دخل أبويا في الكلام دلوقت ؟

- أنا عارف اللي جواكي أكتر من أي حد ، إنتي من يوم ما جه محمد وإنتي معدتيش بتشتغلي مع مسرودة وراح الدخل اللي كنتي بتعتمدي عليه في الصرف على أبوكي صح يا بنت الناس ؟

صمتت و لم ترد فقلت : صح يا حميدة ؟

- صح .

- وأنا إيه وإنتي إيه ؟

- بس يا عبده إنت ذنبك إيه تصرف عليا وعلى ابويا ؟

- ما هو أبويا أنا كمان وألا عندك كلام تاني .

- أبوك وكل حاجة .... بس ....

- من غير بس واحد غيري كان زمانه ما رضــي إنــك تشتغلي أصلا بس عشان أنا بحبك مكنتش عاوز أزعلك ، من

هنا ورايح فلوسي ملكك وملك أبوكي قبل ما تكون ليا يا أم محمد .

عادت لبكائها من جديد فصرخت بها : بتعيطي ليه دلوقت؟!! مفيش .

قالتها وهي تضع محمد في مهده ، جذبتها نحوي وأخذتها في حضني وأنا أقول : أوعي مرة تانية تفكري في حاجة زي دي ، إنتي أنا ومفيش فرق بيناتنا ربنا يخليكي ليا .

- ويخليك ليا يا أبو محمد .

اعتادت حميدة الوضع الجديد وقبلت نقودي ، وإن كانت لا تطلب أبدا فكنت أعطيها دون أن تسألني .

أرسلت أمي في طلبي لأمر ضروري ، كنت عائـــدا مـــن السوق مرهقا لكني ذهبت إليها .

وصلت لأجد أنَّ البيت في حالة اضطراب فنحن في ســـبيل الاستعداد لفرح أختي المخطوبة منذ فترة طويلة وقبل أن أتزوج لابن خالي ، لكنه كان اضطرابا أكثر وحركة غريبـــة لقـــد سقطت جدتي قوت بعد أن اشتد بها المـــرض ، هـــذا الجبـــل الشامخ بل الوتد الراسخ ينهار ، الحـــب والحنـــان ، القـــوة والعطف ، كل ما في جدتي الصامدة يتداعى وينتهي إلى الأبد .

دخلت حجرتها وجدتها مســـتلقية وأنفاســـها تتلاحـــق ، أمسكت يدها قبلتها وهويت بشفاهي عليها ألثمهـــا في كـــل وجهها ودمعي ينسال رغما عني ، فما كنت لأصدق أنه سيأتي يوم وتموت وتبتعد عن دارنا ، ألا أجدها جالسة علـــى عتبـــة الدار ، بيدها المغضنة المسبحة تنقل حباتها بين أصابعها الواهنة ، ترد تحية كل من يمر عليها من الرجال والنساء .

إلى وقت قريب كانت تأخذني في حضنها ثم تضع رأســـي على فخذها ، وتلعب بأصابعها في شعري الذي بدأ ينحسر من الجوانب ، وتتذكر جدي وتروي لي عنه حكايات قد تكـــون هي ذاتها نفس الحكايات التي أسمعها منذ مولدي ، لكني لا أمل

من حكيها ، والاستماع لها ، كانت تغير كل مـــرة أســـلوب روايتها فتكون كأنك تسمعها للمرة الأولى .

ربتت حميدة على كتفي وهي تقول : ما تعملش في نفسك كدة يا عبده ، لم أسمع لها فحزني ، وألمي كانا أكـــبر مـــن أن أواريهما ، فبكيت وانتحبت وفجأة فتحــت جــدتي الغائبــة عينيها، وقالت في صوت ضعيف أشبه بالهمس ، كأن بكـــائي قد أيقظها من سباتها العميق : عبده ، أوعى تعيط يا وله أنـــا رايحة لحبيبي ، جدك واقف أهه مش شايفه ، بيناديني يا عبده ، خللي بالك من أبوك سيد مالوش غيرك .

قالت كلماتها ، وذهبت بعيدا مرة أخرى ، أعلن الطبيـــب عجزه ، فما هي إلا سويعات ، وقد تكون دقائق وتمضي بـــلا عودة .

رحلت قوت ، ورحلت معها ابتسامتي ، عَمَّ الحزن دارنا بل إني شعرت بأن القرية كلها حزينة لحز،' ، وأنَّ كـــل جـــدار وكل شجرة تنعيها ، كل شيء إلا حال أبي وحيدها ، لم أكن قد رأيت أبي باكيا قبل اليوم ، كانت صلابته من صلابتها ومن قسوة الأيام التي تغلبا عليها معا .

كم كان يأتي أبي لها بأقمشة وجلاليب وشـــيلان وطـــرح كلما توفر معه مال ليعوضها جلبابها الوحيد الذي كانت تملكه

ولا سواه ، وحينما تغسله تنتظره ليجف حتى تعيد ارتـــداءه ، كثير من قسوة العيش كانت تحياها تلك السيدة ، بكاهـــا أبي وانتحب وشعرت بأن جزء منه فقد معها ، ضلعا من ضـــلوعه قد انكسر .

وتأجل فرح أختي إلى أجل غير مسمى .

بت أهرب بحزني إلى ساقيتي ، وحقلي ، وشجرة التوت التي وجدتني أهرع إليها ، أتسلقها كما كنت أفعل صبيا ، وأجلس بين فروعها فهي تملك شيئا من جدتي لا أدركه ، اختفيت بين أوراقها وبكيت ، تركت لدموعي العنان و لم أنـــزل عنـــها إلا حينما حل المساء ، ذهبت لبيتي ، ألقيت نفسي على فراشي ، دعتني حميدة لطعام فلم أستجب ، فلم يعد بي رغبة لأي شيء ، لا للعمل ولا للحياة ولا لحميدة نفسها .

حميدة التي لم يكن يهنأ لي يوم إلا وأنا أواقعها ، كل شيء ذهب برحيلها ، ماتت بداخلي كل الأشياء الجميلـــة ، لكـــن حضن زوجتي الدافئ وصبرها أعادني لرشدي ولحياتي وإن لم تكن عودة لسابق الحال ، لقد ذكرتني حميدة بكلمات جـــدتي الأخيرة : خلي بالك من أبوك .

شعرت بالمسئولية تجاه أبي الذي كان حاله أسوأ ما يكون ، فهو لم يفارقها طوال عمره ولو ليوم واحـــد ، بـــدأنا جميعـــا

نتكاتف وأمي لنعيد أبي لحاله ، ظللنا بين يديه ، أحاول إلهاءه بالعمل ونزول السوق وحساباتنا ، شيئا فشيئا عاد لطبيعته وتجارته وإن لم ينس وكيف ينسى ؟

على الرغم من مرور الأيام الطوال إلا أن الحزن لم يزل يخيم على كل شيء ويرسم ظلاله الكئيبة داخل نفوسنا .

كنت في الحقل حين مرّ عليَّ الشيخ جاد ، لم ألحظه إلا حينما سمعته يلقي السلام ، عدوت نحوه وأخذت يده بين يدي أقبلها ، وأنا أقول مرحبا : أبويا الشيخ جاد اتفضل ، اتفضل اشرب الشاي ، يا ألف مرحبا .

قال الشيخ الطيب إمام الجامع والذي تتلمذ على يد كبار شيوخ الأزهر في هدوئه المعتاد : أنا جاي مخصوص أشرب الشاي معاك يا عبده .

- دا أنا ازداد شرف يا ابا الشيخ جاد .

جلست والشيخ في عشتنا وقد صببت الشاي الذي كان جاهزا في الأكواب وقدمته للشيخ الذي قال : فيك إيه يا واد يا عبده .

- أنا ؟!!! أنا مفياش حاجة يا أبا الشيخ .

- لأ فيك يا عبده ، أنا ماتوهش عنك أبدا ، يوم ورا التاني وهقول هتيجي زي عادتك تصلي معايا وتحكيلي ، لكن لا بتيجي ولا بتحكي يا ابن السيد القط .

- والله يا ابا الشيخ ....

- وله ما تحلفش ، إنت وأبوك حالكم انبدل من نهار موت ستك ، أنا مش أعمى ، كل يوم أعدي عليك وأشوفك وإنت بتشتغل أتحسر ، بأة دي ضربة فاسك ، ساعات كنت أشوفك وإنت بتشتغل كنت أحس الأرض بتتوجع تحت ضربة الفاس ، مش الضربة الحنينة دي زي اللي بيشتغل من غير نفس ، عينيك زايغة وحزينة ، أنا عاذر أبوك الراجل الكبير اللي عاش طـــول عمره في حضن أمه ، لكن إنت بأة مش تصلب طولـــك ، دا إنت دراع أبوك .

- عندك حق يا ابا الشيخ بس والله غصب عـــني ، مـــوت ستي كان صعب قوي كل ما أقول لنفسي يـــا واد أصـــلب طولك وإنسى مقدرش .

- يا ابني الموت علينا حق ولكل أجل كتـــاب بســـم الله الرحمن الرحيم (والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) صدق الله العظيم .

- ونعم بالله .

- أنا مش بقولك إنساها اللي زي ستك قوت ما تتنساش، بس ما ننساش إحنا نفسنا ونستسلم للحزن ، كانت وديعة في

الأرض استردها صاحبها ،أخذ هديته الجميلة فـــلا نملـــك إلا الدعاء لها يا ولدي كثيرا كي يتغمدها الله برحمته .

- يا رب ارحمها واغفر لها .

- في حاجة كمان يا سي عبده عايز أكلمك فيها ، ما انتوا حالكم اتعوج مرة واحدة .

- خير يا رب .

- الست مسرودة .

- والله ما تفكرني يا ابا الشيخ دا هيا دي اللي هتجنني .

- مش عشان صابتنا مصيبة نقعد طول العمـــر محاصـــرين روحنا بيها وما نحاولش نبدأ من جديد ونجرب حظنا ، الحيـــاة تجارب لازم نجرب ونغلط ونتعلم كمان من أخطائنا .

- قلت لها كل الكلام دا والله ، كانت ترد عليا تقولي أنـــا اللي شفته ما شافوش حد ومش أنا اللي اخترت أعيش العيشة دي ولا الراجل دا ، عشان أتحمل خطأ اختياري ، أنا اتحملت خطأ غيري ومعنديش استعداد أغلط وأتحمل غلطي .

- الكلام دا ما ينفعش وصوابعك مش زي بعضها ، وغلط عن غلط يفرق ، وولاد الناس كتير ، بس احنا نراعي ربنـــا في اختيارنا ونتوكل عليه .

- آه يا ابا لو تقولها الكلام دا .

- أقوله يا ابني وأقوله مرة واتنين كمان ، دا انـتم ولادي وتربيتي ويصعب عليا أشوفكم تعبانين ، دا انتم حصاد السنين . قول لمسرودة أبوكي الشيخ جاد ربنا ما رزقه بالعيال لكن انتم عياله اللي بيحبهم زي عينيه ، وإن كان عاجبني شغلها وكـل يوم بدعيلها ربنا يوفقها فيه ويرزقها بالزوج الصالح .

- ما هو يا ابا الشيخ جاد بتقول عشان ملهاش في الخلـف مين هيرضى بيها ؟

- في كتير يا ولدي يرضوا بس هيا تنوي وتفكر .

كنا قد انتهينا من احتساء الشاي ومن الكلام فتلك عـادة الشيخ جاد ما إن ينتهي ما جاء يتحدث فيه ينصرف في التو .

أنهيت عملي وأنا أفكر في كلمات الشيخ الكبير ، إني أحس تماما ما قاله ، وأؤمن بقضاء الله ولكن هذا الوليـد العمـلاق المدعو الحزن أكبر من احتمالي ، وإن كان يهـدأ في حضـن حميدة وبسمة محمد .

عرجت على بيت أبي في طريق عودتي ألفيته جالسا علـى باب الدار ،القيت عليه التحية وجلست إلى جواره ، مـدَّ إليّ

يده بقطعة من الخبز الذي كان يتناولـه فأخـذها شـاكرا ، قضمت منها قضمة صغيرة وأعدتها للصينية فقال : ما تاكل .

- أصل حميدة ما بتاكلش إلا لما أروح وأنا قلـت أعـدي أطمن عليك ، أمل أمي فين ؟

- حوة مع أختك أصلهم اشتروا شوية حاجات للجهـاز بتاعها .

- هو دا وقته يابا ؟

- يا بني ستك مش غالية على حد أدي بس الحي أبقـى م الميت ، جواز البت سترة ، والستر نعجل بيه .

- بس يا ابا ......

- من غير بس ، خش بارك لأختك .

- إنت بتحمل نفسك فوق طاقتها .

- مالكش دعوة باللي أنا شايله ، أمي يا ما شالت إيـش تكون شيلتي أنا جنبها .

وجدتني ألقي بنفسي بين يديه وأبكي على كتفـه وأنـا لا أعلم لم صارت عيني كثيرة البكاء منذ رحيل جدتي قوت .

وبكل الحنان الذي من الممكن أن يملكه بشر احتضنني أبي وربت على ظهري ومسح دمعي بطرف كمه وقال والدمع يملأ عينيه : ادع لها يا ولدي ، وصمت برهة ثم تابع : ياللا قوم أغسل وشك ورح بارك لأختك .

- حاضر .

دخلت لأختي السعيدة بجهازها قبلت جبهتها وباركت لها ، وبوركت بحضن أمي ودعاءها .

عدت لبيتي لأجد زوجتي ومسرودة جالستان بلعب محمد أمامهما فجلست إليهما ورويت لمسرودة ما قاله الشيخ جاد فإذا بها تنتفض كأن حية لدغتها وهي تصرخ : حرام عليكم بأة ، أنا عملت لكم إيه ؟

ليه كلكم عاوزين تعذبوني ؟ أنا ما عملتش حاجة في حد فيكم ، محدش حاسس بالنار اللي أنا فيها ، ليه يا عبده كل ما أتوهم إني نسيت تفكرني ، دا محدش كان حاسس بيا أدك ، اللي شفته ملا قلبي نار مش قادرة أطفيها ، نار تحرق أي حد فاهم أي حد .

انطلقت تعدو كما السهم خارجة ، صمت و لم أنطق بكلمة أخرى .

قالت حميدة : روح حصلها صالحها وهاتها ، دي طول النهار ما كلتش لقمة وكانت مستنياك .

جريت خلفها حتى أدركتها ، ناديتها التفتت إليّ وملامح الغضب لم تفارقها ودموعها كما الشرل فقلت : أنا مقصدش يا مسرودة إنتي عارفة إن إنتي بالدنيا وإني مارضاش لكي الأذى وعاوزك تكوني أحسن الناس ، دا أنا عيني فتحت عليكي يا بت ، إنتي خالتي وأختي ، أكلنا وشربنا ولعبنا مع بعض ورضعنا من بز واحد ، دا لو الدنيا كلها اتفقت على حاجة وإنتي قلت حاجة تانية هبأة في صفك ، أنا ما قلتش ليكي كلام الشيخ جاد إلا لأننا عايزين مصلحتك وبنحبك ، يا بت دا إنتي سبب سعدي .

مددت يدي مسحت دمها وجذبتها من ذراعها لتعود معي إلى البيت ، لم تنطق سوى بكلمتين : سيبوني أعيش براحتي .

قلت : حاضر يا مسرودة ، مش هتكلم معاكي تاني في الموضوع دا ، بس أنا عارف إنه هيجي يوم وإنتي اللي تتكلمي لا وهتصرخي .

- لما يبأة يجي اليوم دا يبأة لك الكلام .

تناولنا عشاءنا في تلك لليلة التي حاولت حميدة تبديد جوها
الحزين بخفة ظلها وجمال حديثها وساهم محمد بحركاته الطفولية
البريئة في محو الحزن فضحكنا ضحكا من القلب .

(١٢)

مرت فترة طويلة قبل أنْ ألقى عوض ونجلس لنتحدث سويا، كنا قد صلينا الجمعة خلف الشيخ جاد وخرجنا لنمشي معا ونتكلم ، دعوته للغداء ، صحبني لداري ، جلست معه إلى أن تنتهي حميدة من إعداد الطعام وسألني عن عبد المحسن فقلت وأنا أضحك : إنت مش عارف ؟ البيه في اسكندرية .

- اسكندرية ليه ؟!!!

- راح يجري ورا البلطية أخت محمود ؟

- إيه هيتجوزها ؟

- باينه كدة ، البت لحست عقله ، قايم نايم يحلم بيها وكل كم يوم ناطط لمحمود قال إيه يزوره ، يطمن عليه .

سكت قليلا ثم قلت : الحب يا صاحبي .

- الحب !!!! قالها عوض في أسى وصمت .

- مالك بتقولها كدة ليه ؟

- أبدا مفيش .

- لا يا عوض إنت من ساعة ما شوفتك المرة اللي عـــدت وأنا حاسس إن فيك حاجة مش هيا ، إيه اللي بيك ؟ إنـــت زعلان مع الدكتورة ولا إيه ؟

- أهي الدكتورة دي كانت في يوم من الأيام كل هنايـــا وسعدي ودنيتي الجميلة اللي مقدرتش أصبر على ما أخلـــص الكلية وأجوزها وإحنا لسة طلبة أبويا بيصرف علـــيّ وعليهـــا بقت النار اللي بنكوي بيها في كل لحظة وكل دقيقة ، ولـــولا بقايا حب ليها ، وعشان العيلين اللي مالهومش ذنـــب كنـــت طلقتها من زمان .

- طلاق إيه يا أخي ما تقولش كدة ، دي المصـــارين في البطن بتتعارك .

- مبقاش عراك دا بقى نار لهيبها حرق كل ساعة كانـــت حلوة ، شوه كل لحظة جميلة جمعتنا .

- ليه يا عوض ؟ وإيه اللي وصلكو للحال دي ؟

- أكدب عليك لو قلت إني ملاك ما بيغلطش ، بس أنـــا من يوم ما رجعت من السويس أيام الحرب وأنا تعبان ، اللـــي شفته في الحرب خلاني بقيت بني ادم تاني ، أي حاجة مهمـــا كانت قوية قدامي بتبقى ولا حاجة لأن أي شيء مش هيبقـــى

أصعب م اللي شفته ، ومن هنا قادت أول شرارة بقت تتهمني باللامبالاة ، والبرود ، وإني ما بحسش بيها ، حاولت كتير أتغير مقدرتش ، لكن عدت الأيام وصبرنا لحد ما ظهرت فلوس الخليج وعقود السفر ، والدكاترة اللي راجعين كل سنة شايلين ومحملين .

- طيب وفيها إيه دي ؟

- فيها إني مقدرش .

- ما تقدرش على إيه ؟

- ع الغربة ، دا قعدتي في مصر بعيد عن هنا بعتبرها غربة يا أخي ، لولاها كنت جيت اشتغلت في مستشفى المركز ، لكني صبرت ع الغربة دي عشانها ، لكن تيجي وتقولي أسيب مصر كلها وأعيش في بلد تاني عشان الفلوس لأ وألف لأ ، من يومها وهيا عاملة مشكلة ما بعدها مشكلة ، غضبت عند أهلها، ساقت عليا كل زمايلنا وكل اللي نعرفهم ، لكن أنا مقدرش أبعد عن هنا ، أنا زي السمك لو طلع برة المية يموت، مراتي مش قادرة تحس بيا وبرغباتي ، قلبت حياتي جحيم وعايزة تسافر هيا طالما أنا مش عايز أسافر ، بقى كل حوار بينا ينقلب خناقة ، ما عدتش قادر أتحمل بقيت أهرب م البيت

طول الوقت ومخدتش مواعيد عمل في المستشفى معاها عشان ما نتقابلش .

- للدرجة دي ؟

- وأكتر يا عبده ، أنا مش فاكر آ خر مرة لمستها فيها .

- والحل يا صاحبي ؟

- والله ما أنا عارف ، أنا باجي هنا ومبقاش عاوز أرجع .

- وولادك ؟

- ولادي .... آهي ضيعتني وضيعتهم .

لم يقطع علينا هذا الحوار الأليم غير صوت حميدة يـــدعونا للطعام ، خرجت أنا وهو لصينية الأكل لنجد مسرودة تدخل علينا ، وما إن رأتنا حتى استدارت عائدة فناديتها ، ودعوتهـــا لتدخل لحميدة ، دخلت وهي تدير عينيها عنا ، وبعينيها نظرة لم أستطع تفسيرها ، وفي عيني عوض مزيد من الحزن أرجعتـــه لمعاناته .

ذات يوم تواجدت ، وعوض بالحقل تاركا حميدة بالبيـــت في شهرها الأخير من الحمل بعد سهرة طويلة أنا وعوض طوال الليل إلى جوار مسرودة بعد أن جاءتني في منتصـــف الليـــل ، والألم يمزقها فلقد شعرت بآلام شديدة في بطنها ، لم يكن معها

مخلوق فسارت إلى بيتي تستند على جدران الدور حتى وصلت إليّ خرجت لها مذعورا وحملتها إلى حجرتي والرعب يملأني خوفا عليها ، شرحت ما بها في حين صنعت حميدة كوبا من النعناع الدافئ ولكنها قالت أنها تناولته من قبل و لم يصنع شيئا.

و لم أدر ماذا أفعل فالوقت متأخرا وليس هناك وحدة صحية بالقرية ، لا يوجد غير مستشفى المركز ، ولا سيارات أجرة الآن تقلني إليها ، بحثت بعقلي عمن لديه سيارة ليذهب بي إلى المركز إلى أن قاطعتني حميدة قائلة : ما تجيب صاحبك الدكتور من بلدكم .

كيف لم أدرك هذا ، انطلقت مسرعا على فرسي تجاه قريتنا مختصرا كل الطرق حتى وصلت إلى بيت عوض أدق بابه في هذا الوقت المتأخر من الليل ، صحا أهل الدار مذعورين ، قابلني عوض وقد انتقل له انزعاجي بمجرد رؤيته لي في هذا الوقت فقلت : تعال معايا خالتي عيانة أوي ومش عارف أعمل إيه ولا أروح بيها فين .

تركت فرسي لديهم واستقليت مع عوض سيارته الصغيرة ، وصلنا في دقائق قليلة لنجد مسرودة قد ساءت حالتها ، وأصيبت بقيء مستمر .

أمرني عوض بحملها إلى سيارته لأننا لابد وأن نذهب للمستشفى لأنها قد أصيبت بحالة تسمم لا نعرف لها سببا ، هناك قاموا بعمل غسيل معدة لها ، ظللنا بجانبها حتى تعافت

وفي الصباح اصطحبتها لبيتي ثم انطلقت مع صديقي للحقل رغم قضاءنا ليلة متعبة مرهقة إلا أننا أبينا الذهاب لدارينا ، جلسنا صامتين إلى أن قطع الصمت قائلا : لحد إمتى هتفضل لوحدها ؟

افرض كنت في الغيط بتسقي ومراتك لوحدها كانت هتعمل إيه ؟

- غلبت يا صاحبي ، اللي راح عقدها .

- ربنا معاها .

في اليوم التالي جاء عوض لداري لمتابعة حالة مسرودة التي ما إن رأته معي حتى احمر وجهها لدرجة خلت معها أن النار ستشتعل منه فقلت : إيه خايفة الدكتور يديكي حقنة ولا إيه ؟

ابتسم و لم تبتسم هي ، تركته يلمسها بعد أن رفعت لها حميدة كم جلبابها ليقيس ضغط دمها ، مد يده يتحسس جبهتها وأنا أحسها ترتجف تحت يده والخجل يملأها ، لا أعرف لماذا قفز لذهني لقاءهما القديم ونحن صغارا يوم مددت يدي عليها وهددته هو بالقتل إن حدث وأتى بسيرتها أو اعترض طريقها أو حدثها .

الآن آتي به إلى مخدعها واتركه يلمسها تحت سمعي وبصري.

مرت الدقائق القليلة عليّ وكأنها الدهر وهي كذلك ، حتى أني رأيت في عينيه تساؤل عن وجهها الذي يتفصد عرق مع أن درجة حرارتها عادية .

انقضت الأيام وتماثلت مسرودة للشفاء وعادت لعملها قوية كما كانت وأفضل وسعدت بسلامتها .

بعد فترة وضعت لي زوجتي ولدي الثاني محمود ، وكلما مرَّ يوم وأنا بين عائلتي الصغيرة أشعر بإحساس غريب ، أحس نفسي كبيرا ، ليس بسني وإنما إحساس يتخللني لا أعرف كيف أصفه ولكني أحس كما لو أنني كأبي مثلا ، بحق لا أعرف كيف ولكني كلما جلست مع زوجتي وطفلي ووجدتهم جميعا يتعلقون بي ووجودهم يعتمد عليّ وعلى وجودي أحسني كبيرا، مضت بي اليام وأنا كما أنا وحياتي كما هي بين داري وحقلي والسوق وفي أحد الأيام جاءني خالي صالح حيث أعمل في الأرض وطلب مني أصطحبه معي إلى السوق لأنه أراد شراء جاموستين وبقرة ويبيع بقرتين وأبي كما أعلم لم يعد قادرا على متاعب السوق وأتابع أنا كل عمله .

(١٣)

نزلت وخالي السوق بعنا واشترينا وهناك قابلنا صديقا لخالي يدعى مجدي يقارب الأربعين من عمره حييا لطيفا ، دعانا الرجل إلى بيته القريب واحتفى بنا احتفاء كبيرا ، سعدت بالرجل وأحببته ، دخل قلبي من أول وهلة ، حديثه جميل كما أنه متعلم ومن بيت كريم ، شعرت أن الرجل سيكون صديقي، صممت على دعوته لداري وقبل الدعوة بدماثة خلقه ، وحددت وهو موعد لزيارتي .

جاءني في الموعد الذي حددناه سويا ومعه ولده الصغير ، لم أكن أعلم أنه أرمل كنت أظن أن الطعام الرائع الذي أكلناه يومه من يد زوجته ، ولكنه كان من صنع أمه التي ترعاه وولده الذي ماتت أمه بعد ولادته بقليل .

أعدت حميدة وليمة تليق بالضيف وساعدتها مسرودة في ذلك ثم انصرفت ، جلست والرجل نتحاور وكأننا نعرف بعض منذ سنين ، صرنا نتبادل الزيارات حتى بات في منزلة عوض وعبد المحسن ، وبينما كانت تتوطد علاقتي بالحاج مجدي غاب عني عوض كما غاب عبد المحسن من قبل في بلد البلطية ولم يعد ، تزوجها هناك وانتقل للعمل بالاسكندرية .

كنت في طريقي لدارنا لأطمئن على أبي وأطلعه على بعض الأمور وأعطيه حقه من حساب السوق وعند خروجي قابلت أحد المعارف فمشيت معه في طريق غير طريقي المعتاد وفي أثناء

سيرنا مررت بيت عوض واستلفت نظري سيارته التي تقف أمام داره فلم أكن أعلم أنه هنا ، فهو في العادة يرسل لي فور عودته أو يأتيني في حقلي ولأنني لم أره منذ مدة بعيدة خلت أنه لم يأت فيها .

كنت في شوق كبير له فاستأذنت رفيقي وذهبت له ، استقبلتني أمه بترحاب كبير رغم ملامح الحزن التي تكسو وجهها ، دخلت إلى حجرة عوض الذي لمحت طفليه يلعبان وسط الدار ، ما إن وقعت عيني عليه حتى كاد يغشى عليّ ، لقد رأيت شبحا لصديقي ، رجلا لم أره من قبل ، اندفعت نحوه ولسان حالي يتساءل ماذا حل بك يا صاحبي ، ماذا جرى؟

نظر إلي بعين كسيرة دامعة وألقى بنفسه في حضني ، ضممته بشدة لأشعره إني إلى جواره وقلت : في إيه يا عوض ؟ جرى إيه ؟

قال في حسرة : طلقتها أو بمعنى أصح طلقتني وسابت لي العيال وسافرت ، قالت لي ما تلزمنيش الحياة معاك .

قلت وقد تملكني الغضب : وهي دي مَرَة تستاهل تعمل عشانها اللي انت عامله دا ؟ حابس نفسك وسايب شغلك والناس اللي محتاجة لك عشان واحدة باعتك ؟ اللي باعك بيعه ولا تبكي عليه ، متستاهلكش يا صاحبي .

- صعبان عليا يا عبده حياتي معاها وحي ليها اللـــي بينـــا مكنش شوية أنا بحبها .

- باينه كان حب من ناحيتك بس وإلا ماكانتش سابتك ، دي نفس طماعة طمعت فيك في البداية ودلوقت طمعـــت في اللي هو أكبر منك ويمكن لو طاوعتها وسافرت معاها ولقـــت فرصة أكبر منك كانت برضه سابتك ، ربنا بيحبك صدقني .

- عارف يا عبده بس صدقني الموضوع مش سهل واللـــي مخزني ولادي اللي كل يوم بيسألوا عليها وأمي بتدوخ وياهم لحد ما يناموا .

- معلش دول لسة صغيرين بكرة ينســـوا ودي مـــرة لازم تتنسى .

لم أخرج من عنده إلا بعد أن جعلته يستحم ويحلق ويرتدي ملابس نظيفة ويخرج معي ، ذهبت معه لمكانـنـــا في عشـــتي ، شربنا الشاي ، ثم عدت به لداري وتناولنا العشاء وإن كنـــت أدفعه دفعا ليأكل .

لم يمض يوما إلا وكنت معه حتى عاد لعمله ، وصار يـــأتي كل نهاية أسبوع حتى يرى أولاده ، وشـــعرت أنّ وقـــوفي إلى جوار عوض قد شد من أذره .

عَرَّفته على الحاج مجدي ، صرنا نلتقي يوم الخميس لنسهر سويا حتى الصباح ، كان عوض يعرف مسرودة وحميدة جيدا وعرفهما الحاج مجدي أيضا ، و لم أكن أقلق أو أشك لاسمح الله في أي منهما ، و لم يكن طبعي ولكن الظروف هي التي دفعت الرجل الغريب ليعرف حريم داري ، ما كان مجدي يصدق نفسه حين علم أنّ مسرودة التي تجوب سمعتها البلاد هي خالتي وأخت صالح صديقه وقال لها : سلم إيديكي ، دا أنا ياما بعت اشتريت من عمل إيدك أحلى مسرودة وأجمل فطير حتى إن أمي زعلت مني وقالت : مبقاش يعجبك أكل أمك ، بس بصراحة لما داقت أكلك قالت لي : عندك حق .

صار الخميس هذا يوما نعد له العدة في داري ولا يحرمنا صفوه إلا غياب عوض في المستشفى لأي طارئ .

جاءني مجدي على غير العادة في يوم غير الخميس قال إنه يريدني في موضوع هام .

- تحت أمرك يا أبو طاهر .... خير ؟

- بصراحة عاوز أناسبك .

- تناسبني أنا في مين يا ترى ؟

- الست مسرودة .

- مسرودة !!!!!

- أيوة .

- يا حاج مجدي أنا ازداد شرف بس لازم أسـألها انـت عارف دا أمر يخصها وكمان في حاجة لازم تعرفها .

- إيه يا أبو محمد في حد تاني ؟

- لا بس أصل مسرودة .... ملهاش في الخلف .

- ما بتخلفش يعني ؟

- أيوة ، عشان كدة لازم تفكر كويس أنا عارف إنـك نفسك تخاوي طاهر .

- الموضوع مش عايز تفكير ، أنا ربنا عطاني الولد ونفسي في الزوجة الصالحة وأنا شايف إن الست مسرودة هـي اللـي هتعوضني المرحومة .

- زي ما قلت لك أنا أزداد شرف واللي فيه الخير يقدمـه ربنا .

لم يكن هناك أحد على وجه الأرض أكثر مني فرحا ، حتى إنني لم أطق أن أصبر حتى الصباح فعدوت نحو منزلها لأخبرها وابشرها ، الحاج مجدي رجل بحق في زمـن ضـئيل جـوده

بالرجال ومرات كثيرة تمنيت في نفسي أن يطلبـــها ويكـــون زوجها .

طرقت بابها والفرحة تملأني ، انزعجت من زيارتي المفاجئـــة لها فطمأنتها وأخبرتها بدون مقدمات فأنا دائما لا أحب للـــف والدوران ، استقبلت خالتي فرحتي برفض قاطع أحال فـــرحتي غضبا عارما فقلت : ليه عشان إيه ؟ الراجل دا مـــش زي أي حد جالك قبل كدة ، إنتي إيه ما بتفكريش ؟

- سبق وقلت لك أنا مش هتجوز تاني يا عبده والموضوع انتهى خلاص .

- لأ مش خلاص .

- قصدك إيه هتغصبني إنت كمان .

- والله لو حكمت هعملها ، أحسن خلاص إنتي معدلكيش كبير .

- زمان كنت صغيرة ومقدرش أعمل حاجة لكن دلوقت لا ، إنسى .

- هتقفي قصادي يا مسرودة ؟!!

- وقصاد أي حد ياخد مني حريتي ويغصبني على أي حاجة حتى لو كنت إنت يا ابن أختي .

تركت بيتها قبل أن أحتد عليها أكثر وأمد يدي لها ضاربا ، خرجت وقد عرفت معنى أن تقتل الفرحة في مهدها ، لم يكن مجدي مثل زوجها السابق وهي بنفسها لمست ذلك ، وكانت تشهد له ومعجبة بخلقه الكريم ، لماذا حين دخل الأمر في إطار الزواج ثارت هكذا ؟!!

لقد تحدتني ماذا أفعل ؟

هل أشكوها لأخوتها الرجال فهم المسئولون عنها بعد رحيل جدي وجدتي ؟ من بمقدوره السيطرة على مسرودة بعد ما آل إليه حالها ؟

قالت أنها لم تعد تلك الطفلة التي ينفقون عليها وتربـت في بيتهم حتى يجبروها على الزواج ، لقد صنعت حياة مختلفة لها ، حياة هي قوامها وصاحبة الأمر والنهي فيها .

شاركتني حميدة حيرتي وألمي ، انطلقت مع شروق الشـمس إلى دار أبي أخبرت أمي بما حدث وصحبتها لبيت مسرودة التي رايت منها قوة وتحد يفوق قوتي أنا المتباهي بعنفـواني وقـوتي الجسدية ، رأيت من مسرودة قوة ليست في جسدها وإنما في روحها مستمدة من ثبات موقفها وصلابة رايها ، رجعنا وقد خسرنا الأخت لي ولأمي والخالة والصاحبة والجارة والرفيقـة لي.

كنت في غاية الخجل وأنا أبلغ مجدي رفض مسرودة الزواج منه ، رفضها هذا جرَّ عليها قطيعة جميع أخوتها وأختها الوحيدة وقطيعتي أنا لها .

ملأ الحزن نفسي فلقد كان آخر ما أتوقع أن أفقدها وأن يأتي عليّ يوم لا تبصرها عيني ، ولكم شق على نفسي أن أتقابل وهي كما الغرباء لم نلق على بعضنا السلام وأدارت وجهها عني ، مضت كأنها لم تعرفني من قبل .

خيم الحزن على حياتي كلها ، اختفى يوم الخميس وسامره مما جعلني أذهب إلى بيت مجدي وأدعوه لزيارتي من جديد وأخبره ألا يدع الأمر يؤثر في علاقتنا .

كان بامتناعه عن داري أن يحمي نفسه من رؤية مسرودة ، هو لا يعلم أنها لن تأتي بيتي بعد ذلك أبدا ، حين علم بالأمر حزن وتألم ولكني قلت له لا داعي لأن تلقي بالمسئولية عليك لوحدك ، أنت مالكش ذنب في أي حاجة ، اللي حصل دا على رأي عوض هيحصل هيحصل معاك و مع غيرك .

تعجب مجدي لسر عزوفها عن الزواج ومقاومتها هذه فرويت له حكايتها مع الزواج .

قال : هي صحيح عندها حق بس صوابعك مش زي بعضها .

- ياما قلت لها كدة بس تقول إيه بقى دماغها ناشفة .

- واضح إنك متعلق بيها أوي ؟

- مسرودة دي حاجة كبيرة أوي مفيش يوم في حياتي إلا وكان ليها فيه أثر ، شاركتني كل أيامي وأهدتني أجمل هدية في الدنيا كلها .

- إيه الهدية دي ؟

- عرفتني على أم محمد ، اختارتها ونقتها لي وبعدين قالت لي عليها ومن أول ما شفتها حسيت إنها جابت كل اللي أنا عايزه في ست واحدة .

- بس أنتم لازما تتصالحوا .

- أكيد هيحصل بس مش حالا .

حاولت حميدة بشتى الطرق أن تحتوي حزني وألمي تجاه ما حدث ولكن كيف وأنا أحس أن جزء مني قد بُتر ، فُقد ، وياله من جزء قاسي لم يهمه غضبي و لم يزعجه فراقي ، حاولت الانشغال بأمر أسرتي الصغيرة وخاصة طفلي حتى أنسى أن لي خالة على بعد أمتار قليلة مني ولا أكلمها .

مر علي القطيعة بضعة أشهر فاتت كأنها الدهر ، لم تأت لتعتذر عما بدر منها ، لم تلن و لم أتخل عن كرامتي وأذهب لأصالحها .

عدت ذات مساء للدار وجلست أتناول عشائي مع حميدة التي قالت بعد انتهائنا من الطعام : عايزة أقولك على حاجة بس سايق عليك النبي ما تزعل .

- وهيا حاجة تزعل أوي ؟

- يعني معرفش بس والنبي بلاش تزعل أحسن زعلك بيبقى وحش أوي .

- قولي وخلاص بأة أنا مش حمل مناهدة .

- شفته أهه ، أهه من أولها وقلبت سحنتك .

- هتقولي ولا أقوم أتخمد أحسن .

- طيب خلاص أهه ، أصل داير في البلد إن مسرودة لها مدة مابتباتش في دارها .

- ما إيه ؟!!!! أمال بتبات فين .

- ما أنا جاية لك في الكلام أهه ، بيقولوا إنها اشترت شقة في طنطا .

- شقة !!!!!! وهتعمل بيها إيه الشقة دي .

- معرفش ، ماتروح لها وكلمها .

- أنا أكلمها أبدا ما يحصل .

- دي برضه خالتك اللي بتحبها .

- كان زمان يا أم محمد ...... كان زمان .

(١٤)

خرجت من داري في صباح يوم لم يكن في نيتي الـــذهاب للسوق فيه ، فظللت نائما للسابعة صـــباحا ثم خرجـــت إلى الحقل، ما إن وصلت حتى خلعت جلبابي في العشة ، ووضعت براد الشاي على النار ودخلت أرضي أتفقد زراعـــتي وأجمـــع بعض الحشائش التي نبتت بين محصولي تنافسه غذائه ، تجمعت بيدي كمية وقفت متوجها إلى رأس الحقل لأضع الحشـــائش هناك ، اتجهت عيني صوب شجرة التوت ، لمحت امرأة جالسة مستندة إليها ، امرأة لا تخطئ عيني ثنايا جسدها في جلستها ، ولا حركة من حركاتها في وضع الجلوس ، لقد كانـــت هـــي ولأول مرة أرتبك لم تكن تأت إلى هنا سواء أنا أو هي إلا إذا كان هناك ما يعكر صفونا ترى ماذا بها ؟!

عدت أقول وما يشغلني أنا ؟ إذا كانت هي لم نعد نشغلها وأخرجتنا من حياتها ، ظنت أني بالسوق اليوم فأتت ، قلت في نفسي سأدخل العشة حتى تمضي وكأني لم أرها ، ولا أعرف لَمَ فرت من عيني دمعة حين جاءني هذا الخاطر ؟ أختفـــي منـــها حتى تمضي ، رفيقة عمري أهرب من رؤيتها وتتهرب مني يا له من قدر !!!!!

في تلك اللحظة دخل العشة عوض وفي يده مسرودة يدفعها دفعا لتدخل العشة حين لمحني داخلها قبل أن يتكلم مع مسرودة التي وجدها تجلس حيث رأيتها ، أدرت ظهري لهـــا فجـــذبني

عوض من يدي وقال : جرى إيه يا واد إنت وهـي ، انـتم هتعملوا زي ما كنا صغار وإن كنت انت اللي بتصالحني عليها لأنك عمرك ما كنت بتزعل منها أبدا .

قلت مسرعا : وأنا عمري ما زعلتها ولا قـدرت ازعلـها ويوم ما حصل صالحتها في ساعتها وهي عارفة ، لكن أنا هنت عليها .

وانفلتت مني دمعة أخرى أكثر ألما ووجعا ، دمعة حبسـتها كثيرا .

اقتربت مني ومسحت دمعتي وهي تقول : عمرك ما هنـت يا حبيبي ، ولا يمكن تهون بس ساعتها شفتك زينهم اللي باعني بالرخيص .

- وهو أنا زي زينهم ؟!!!! أنا زيه يا مسرودة ؟!!!!

بكت وهي تقول : سامحني .

- طب هسامحك عشان اللي عملتيه ، لكن أسامحك إزاي على إنك تقابليني في الطريق تودي وشك الناحيـة التانيـة ، وتلات تشهر ماتفكريش حتى تبصي عليا ولا حتى أمي ، كلنا هنا عليكي يا مسرودة .

- أوعى تقول كدة دا أنت أخويا وزينب أمي .

قال عوض : كفاية عتاب بأة وطي يا عبـــده علـــى راس خالتك بوسها وبوس إيدها .

قالت : أنا اللي هبوس راسه وإيده أنا اللي غلطانة .

احتضنتها بقوة وأنا أقبل رأسها ، جلسنا ثلاثتنـــا نحتســـي الشاي ، أكلنا بعض الجبن القديم والعيش المرحرح والطمـــاطم والخيار .

ضحكنا وتسامرنا وعدت وهي إلى داري ومـــا إن رأتنـــا حميدة معا حتى أطلقت زغرودة واحتضنتها وهي تقول : نورتي دارك يا حبيبتي .

توجهت إليّ حميدة بالكلام قائلة : رحت لأمي زينب ؟

قلت على الفور : طبعا هو أنا أقدر ، بس ياختي لاقيتـــهم زي السمن ع العسل ، أنا بس اللي كان مغضوب عليا .

حميدة : دا كلام مالوش عازة دلوقت ، المهم إنها رجعت تنورنا من تاني مش بذمتك الدنيا كانت ضلمة من غيرها .

قلت بلهجة معاتب : وأي ضلمة .

وقفت بيني وبين حميدة وضمتنا بيديها قائلة : وأنا أيامي من غيركم ماكانش لها طعم بس تقول إيه للشـــيطان ، الله يلعنـــه عادت مسرودة لحياتي كما كانت وإن كان هناك حاجزا قـــد

بني بيني وبينها لم أستطع أن أهدمه ، أول مرة أحس أن هنـــاك ما أود أن أقوله لها أو أحاول محادثتها في أي موضوع وأجـــد غضاضة وشيئا يمنعني ، يمسك لساني فيعجز عن النطق بما يريد.

بَنَت مسرودة الحاجز دون أن تدري ، قوته ببعادها ثلاثـــة اشهر ، جاءتني أمي وأختي الصغيرة على غير عادتها والفرحـــة تقفز من عينيها ، فرحة جعلتني أستبشر خيرا وأسألها عن ســـر فرحتها .

قالت : إيه هو باين عليا أوي كدة ؟!!!

– آه يا أمة دا أنت حتى احلويتي .

- بس يا وله

- والنبي

- ناديت حميدة التي كانت تعد الشاي وقلت لها : مش والنبي أمي احلوت ؟

ردت : ما هي طول عمرها حلوة بس هي النهاردة حلاوتها زايدة حتة وياكلوها الساعة ستة .

أمي : حتى أنتي يا حميدة ؟

حميدة: والله يا أمة النهاردة اسم الله عليكي وشك بيزغرت.

قلت : في إيه يا أمة فرحيني معاكي .

أمي : عندي خبر مش هتصدقه .

- خير قولي بقى .

- أنا وأبوك هنطلع نحج اسمنا جه في القرعة .

قلت في فرحة : يا بركة الله مبروك يا أمة .

انحنيت أقبل رأسها ويدها وأقول : مبروك يا أمة ألف مبروك يا حاجة زينب .

- الله قولها كمان خلي قلبي ينشرح .

ظلت أمي تحصي الأيام يوما بعد يوم حتى تسافر لأداء فريضة الحج رغم أننا كنا قبل رمضان بأيام الذي أتى بخيره كعادته .

ولأنه شهر الدعوات والزيارات والولائم فقد دعوت الخميس الأول من الشهر الحاج مجدي وعوض على الإفطار لنلتقي كعادتنا كل خميس ، أُذن للمغرب ونحن ملتفون حول طبلية ملأتها زوجتي بشتى صنوف الطعام وأطيبها أعدت الوليمة بمساعدتي دون مسرودة التي اختفت طيلة اليوم واليوم السابق ولا أعرف أين ذهبت .

تناولنا إفطارنا ثم جلسنا نتسامر وقد وضعت زوجتي الجميلة طبقا من القطايف اللذيذة وصحنا من الكنافة التي ذهبت للمركز خصيصا لإحضارها هي والقطايف .

علا ضحكنا ومزاحنا ونحن نجلس أمامك الدار بعد أن انتهينا من صلاة التراويح في زاوية الشيخ أبو المجد التي تجاور داري ، لمحتها قادمة نحونا ومن الواضح من ملابسها أنها قادمة من الخارج وليس من البيت وأدركت تغير لون وجهها حين لمحت الحاج مجدي بيننا وشعرت بقدمها تكاد تتراجع بها للخلف ولكنها تقدمت وأتت ، ألقت التحية ، ودخلت مسرعة ، حاولت ألا أجعل مقدمها أمرا مهما يعكر صفونا وخاصة بعدما جالت عيني في وجه مجدي وبكياسة فهم عوض الأمر فحاول إعادة موضوع حديثنا وضحكنا وساعدته .

دخلت لآتي بالشاي فوجدتها تجلس مع حميدة وقد أخذهما الحديث فقلت لها : كنتي فين بقالك يومين يا مسرودة ؟

- كنت في طنطا .

- من إمبارح ؟

- آه ليه في حاجة ؟

- كنت عند مين يا مسرودة ليومين ؟

- كنت في بيتي .

- بيت مين ؟

- بيتي أنا ، أنا لية شقة هناك .

- يعني كلام الناس بجد ؟

- وهي الناس بتقول إيه بقى ؟

- بتقول إن عندك بيت في طنطا هما عرفوا وإحنا ل .

- انت ما سالتش .

- وأنا لازم أسأل عشان تقوليلي ؟

- المفروض تسأل وأنا أجاوبك إن كنت عاوزة أجاوب.

- كمان !!!!!! ياه يا خالتي ، كان عندي حق .

- حق في إيه ؟

- مش وقته عندي ناس بعدين يا بنت الناس .

خرجت بالشاي للضيفين وأنا أكاد أجن من كلماقا واتضح على ملامحي السوء الذي اعتراني فقال عوض على الفور : مالك يا أبو محمد ؟ في إيه ؟

قلت محاولا التماسك والعودة لحالي : أبداً مفيش حاجة .

مجدي : إزاي بأة دا إنت وشك جايب ميت لون في حاجة حصلت ؟

قلت في أسى : مفيش يا جماعة ، بس أنا فجأة حسيت إن ممكن تكون بتزرع زرعة خدمتها وراعتها بس ما تطلعش أو يطلع طرحها مُر ينكد عليك .

مجدي : إيه يا أبو محمد أنا مش فاهم حاجة .

عوض : إيه يا عبده اللي جرى فهمنا يا ابني إحنا مش أخواتك

قبل أن أجيب خرجت مسرودة من الدار دون حتى أن تلقي السلام علينا ففهم الاثنان أنها السبب فقال مجدي : أنا السبب مش كدة ؟

قلت : لأ مش إنت ، إنت مالكش دعوة هي اللي طلعت واحدة تانية معرفهاش شاركتني سنين عمري ، قسمت معاها اللقمة لو مرضت كنت أعيا أنا لكن طلعت غريبة معرفهاش .

عوض : إيه اللي جرى انتوا لسة متصالحين ؟

- بسألها بقى لها يومين مش باينة متعودش منها الغياب ، ردت وقالت : إن ليها شقة في طنطا ، مكنتش أعرف ولما حميدة قالت لي الناس بتقول مصدقتش .

عوض : هو إنت فعلا ما تعرفش ؟

- والله يا صاحبي ما أعرف وهعرف منين ؟

- أنا قابلتها من فترة في طنطا جنب مستشفى الجامعة كانت خارجة من الشارع اللي قدام المستشفى ، سلمت عليها وعرفت منها إنها ليها شقة في الشارع دا بتيجي تشقر عليها كل كم يوم وما قلتلكش عشان افتكرت إنك أكيد عارف .

- والله ما أعرف حاجة غير إن دي إشاعات الناس بتقولها.
مجدي : طيب حاية شقة ليه في طنطا لما ليها بيت هنا ؟

عوض : سألتها نفس السؤال وأنا بوصلها البلد قالت إنها بتحب المدينة وبترتاح هناك .

قلت : بأة كدة ، مبقلهاش كبير .

عوض : ما تشغلش بالك بمسرودة يا عبده ، إنت عارف أكتر مننا كلنا إنها قوية وليها فكر لوحدها غير أي حد .

- با يني معرفهاش يا صاحبي ، أنا كنت فاكر إني أغرفها بس طلعت مبعرفش حاجة خالص .

مجدي : سيبها هي مش صغيرة وعارفة أكيد مصلحة نفسها.

تركني الرجلان تنهشني الأفكار تعبث بي ويمزقني الحال الغريب الذي آل إليه علاقتي بها ، تلك العلاقة التي كانت أجمل ما في حياتي . لم يغمض لي جفن طوال الليل وسهرت حميدة لسهري تحاول محاولات يائسة أن تجعلني اصرف فكري عن هذا الموضوع إلا أن عقلي توقف عنده و لم يبال بشيء آخر .

خطر لي أن أذهب لأمي في الصباح ولكني تراجعت لأنني بعد طول تفكير قررت ألا أشغل بالي بخالتي وان أخرجها من حياتي كأن لم تكن ويكون مجرد وجودها علاقة عادية لصلة الرحم ، فلا داعي لخسارتها وخسارة ديني معها .

انطلقت للحقل في الصباح الباكر ، باشرت عملي وشربت الشاي ، عدت بعد ذلك للبيت استحممت وذهبت لصلاة الجمعة ، لأعود بعدها لأجد أمي وأبي وأختي الصغيرة لدي في الدار وكانت حميدة قد حدثتهم في أمر مسرودة ولمحت الحزن على وجه أمي ، حزنا لم أره على وجهها أبدا حتى يوم وفاة والديها ، أرجعته لأنها قد أعلنت وفاة مسرودة وعدم وجودها بحياتها بعد الآن مثلما فعلت بالأمس .

لمت حميدة أنها أخبرت أمي فهي لم يعد بمقدورها تحمل المزيد من أفعال مسرودة ، انصرفوا ولكني لم أنس حزن أمي بسمتها التي انطفأ نورها .

مرت علينا أياما طويلة لم أر فيها مسرودة أو اسمع عنها اي شيء و لم أحاول أن اسأل .

(١٥)

ذات صباح طلبت مني حميدة أن تشتري جلبابا جديدا ،وبعض ملابس لطفلينا ، أخذتها ونزلنا طنطا فأنا أحب أن اشتري لها أفضل شيء طالما أنّ الله قد يمن عليّ ويكرمني برزق وفير لم يخطر حتى ببالي .

أمضينا يوما ظريفا اشترينا ما أردنا ، وأكلنا وشربنا ، استمتعت مع أسرتي الصغيرة الجميلة غارقا في خمر عينيّ حميدة التي لازال النظر إليها يبعث في النشوة ، والفرحة ، وينير ابتسامي ، ويؤجج رغبتي فيها .

في طريق عودتنا وقد أمسى بنا اليوم اصطدمت وجها لوجه مع صديقي القديم ، صديقي العزيز عبد المحسن الذي افتقدته كثيرا منذ ذهب إلى الإسكندرية ، وأخبرني أنه تزوج البلطية ، وانتقل للعيش ، والعمل هناك إلى جوار زوجته أخت رفيقنا بالجيش .

لكن عبد المحسن لم يكن وحده وإنما مع امرأة ليست أخت صديقنا ، إنها امرأة أخرى كانت تتأبط ذراعه وتسير بكثير من الفخر والاعتزاز ، يتضاحكان ، وتميل برأسها نحوه لتسمع حديثه الذي يحجبه عنها صخب الشارع ، و لم تكن تلك المرأة بغريبة إنها مسرودة !!!!!!!!!

تسمرت وزوجتي غير مصدقين ما نرى ، بداخلي سؤال يمزقني ، ينطلق عبر قسمات وجهي لم ؟ لماذا لم تخبرانا ؟! هل كنا لنمانع ؟! أنت صديقي الوحيد وهي خالتي فلم أمانع ؟

جرتني زوجتي بعيدا قبل أن أفيق من هول الصدمة ، وارتكب جرما أحاسب عليه ، عدت للبيت غير مصدق أي شيء ، ولا أعرف ماذا أفعل ؟

إنهما مدينان لي بتفسير يبرر علاقتهما التي أخفاياها عن الجميع ، أية ظروف جمعتهما ؟ أية حياة يعيشاها ؟ عقلي لم يعد يستوعب .

عدوت نحو قرية أبي وأمي ، انطلقت لبيت عوض ، كان نائما أيقظته ، أخبرته بما رأيت ، لم يستطع أن يعطيني أي تفسير ، و لم يتمكن من إطفاء حريقي .

دار بذهنه ذات السؤال منذ متى ؟ و لَمَ ؟ لكن ما من مجيب!

عبد المحسن خرج من البلدة ليتزوج أخت زميلنا بالإسكندرية ، لم يكن له بالبلد شيء لا أرض ، ولا أهل ، أخته الوحيدة متزوجة خارج البلدة لماذا يخون ؟!! و لم في الخفاء ؟

عاد بي عوض إلى داري ، وهناك كانت المفاجأة لقد وجدتهما بانتظاري ، كدت أطردها إلا أنّ عوض ضغط على

يدي، منعني من أي كلام ، جلست صامتا مترقبا ، نار الغضب تُطيّر عقلي .

قالت مسرودة في برود : عبد المحسن جوزي .

حاولت أن أكون باردا مثلها دون فائدة فخرجت كلماتي كطلقات المدفع : وليه في السر ؟

مسرودة : خفنا منكم .

- خفتي من مين يا مسرودة ، دا إنتي خالتي وهو صاحبي ، تكونيش خفتي من أخواتك اللي من أيام جوازتك الأولانية محدش قادر يمشي كلمة عليكي .

صمت برهة ثم تابعت بشيء من السخرية : شوفي حجة تانية ، وإنت يا صاحبي ليه خنتني وإنت صاحب عمري كله ؟

قال وهو يجمع شتاته : صاحبك آه بس مش زيك ، ولا زي عوض عشان أطمع في نسبكم ، أنا من زمان ، وإحنا صغيرين ومسرودة دي حاجة كبيرة قوي عندي بس أنا مين وهيا مين ؟ وفين أنا وفين هيا ؟

غصبتوها ع الجواز ووقفت عاجز مش قادر أتحرك وأنا في إيدي إيه ، كل يوم جايب لها عريس أحسن من التاني ، أقولك

إيه ؟ جوزني خالتك وأنا ماليش إلا مرتبي وحتة بيت ما يصلحش غير زريبة للمواشي أنا مين ؟

قابلتها يوم في المركز قلت أوصلها بدل ما هي لوحدها فجأة حسيت إن لساني انحلت عقدته ، وحاجة بقت تقولي قولها ساكت ليه ؟ كنت خايف لتكون بتحب حد تاني ، لكن لقيت قلبها خالي ، لأ لقيت قلبها بيدور عليا ، وأنا وهيا عايزين بعض .

صرخت في عصبية : في الحلال قدام الناس مش في الخفا .

عبد المحسن : غلطنا .

عوض : عشان كده كدبت وقلت رايح تتجوز في إسكندرية .

عبد المحسن: كانت فكرتها أنا نقلت شغلي المديرية في طنطا بس وسكنت في شقة جنب شغلي .

قلت في غضب : انتوا الاتنين مالكوش مكان في بيتي ، ولا في حياتي اطلعوا بره .

عوض : عبده اهدا مش كده .

- مش كده إيه هما مخلوش حاجة تخليني حتى أفكر في الحكاية ، صاحبي اللي عمري كله وياه وعيشي وملحي معاه

نسيه ونسي كل شيء ، نسي حتى إننا ياما اتحبسنا في خندق واحد واحتمينا في بعض قبل ما نتحامي في سلاحنا . الحرب اللي عشناها وشفناها سوا ما علمتوش يصون العشرة ، ويحافظ عليا ، وعلى عرضي مع إنها خلتني أسامحك يا عوض رغم إنك غلط وإحنا صغار مش رجالة لكن الأصيل بيبان ، والله الأصيل بيبان .

اتفضلوا بره بيتي .

مسرودة : بأة كده يا عبده .

التفتت إلى حميدة وقالت : وإنتي يا حميدة راضية عن اللي بيعمله جوزك ؟

حميدة : إنتي ما خلتيش فيها قوالة ، إنتي اللي بعتي مش إحنا.

أبعدت ناظري عنها وهي ترمقني بنظرات غاضبة بدلا من أن تستعطفني لأسامحها ، وكأنها كانت بانتظار رد فعلي هذا أو أنها لم تتصور أن يكون رد فعلي هكذا .

خرجا وقد لمحت دمعة تترقرق في عين عبد المحسن ، بينما جلست وأنفاسي تتلاحق بشدة وألما كاد يحطم رأسي ، ودوار شديد خلت معه أني لا أستطيع حمل نفسي ، داهمتني رغبة

ملحة في القيء ، كأن معدتي شاطرتني الغضب فأرادت بإلقاء ما بجوفها .

لحني عوض وأنا أجاهد حتى أبقى صامدا ، اقترب مني ،أمسك بيدي وتحسس نبضي ، نادى زوجتي لتخلي له الطريق لحجرتي .

رأتني حميدة وتساءلت منزعجة : فيه إيه يا دكتور ؟

لم يرد عليها وضعني على السرير ، وعدا نحو سيارته أحضر حقيبته ، وعاد مسرعا ، الدموع تفر من عيني حميدة وهو يكشف عليّ وتقول : كان مستخبي لنا فين دا ؟

بعد أن قام بقياس ضغط دمي الذي وجده مرتفعا جدا عرفت ذلك قبل أن يقول من ملامحه المكفهرة وهو يتابع تصاعد الزئبق في الجهاز .

كتب لي بعض أدوية أرسلنا في شرائها ، وأوصاني ألا أنفعل ، وظل جواري طويلا ثم انصرف على وعد منه أن يأتيني في الصباح .

دنت مني حميدة وفي عينيها دمع غالي وقالت : عشان خاطري يا عبده ، طيب بلاش خاطري أنا عشان ولادك ما تعصب روحك ، محدش يستاهل تضيع نفسك عشانه ، احنا عاوزينك يا حبيبي ، أنا ماليش غيرك .

نظرت إليها في عطف وإشفاق ، وقد لمعت عيني بالدموع وقلت : صعب قوي يا حميدة الإحساس بالخيانة ، صعب قوي لما تجيلك كمان من أقرب الأقربين .

- الدنيا ياما فيها يا عبده وطول ما احنا عايشين يا ما هنشوف ، بس المهم نتعلم م اللي بيمر علينا ، أوعاك تبكي على حد باعك وباع عشرتك دا انت تقول الحمد لله إنه بين لك غدرهم بدل ما كنت عايش مخدوع .

رمقتها بحب لم أستطع وصفه ؛ في تلك اللحظة رأيتها كبيرة ألف مرة فقلت : بحبك يا حميدة ، بحبك قوي .

احمر وجهها خجلا ، وابتسمت وهي تقول : مش أد حبي لك يا أبو محمد ، دا انت نور عيني .

ألقت برأسها فوق صدري واحتضنتها بشدة ، ظلت بحضني حتى غفت عيني .

دقائق قليلة هي التي نامتها عيناي ، لكن عقلي لم ينم ، سرعان ما أيقظني الفكر ، حاولت أن أحذف ما حدث من حياتي كأن لم يكن ، خضت حربا لا يهدأ أوراها حتى أنسى، لكني فشلت ، خسرت الحرب ، الأحداث تتلاحق بذهني بشدة ، وتتكرر في إلحاح لأرى بها كل مرة شيئا لم أره في المرة التي تسبقها ، وأخيرا اهتديت لشيء، حينها كفت أن تلاحقني، لقد رأيت ما أرادت تلك الأحداث مني أن أراه .

إنها لا تحبه كما يعتقد ، إنها اختارته لغرض ما في نفسها ، إنه سُلما ، لا بل درجة سلم كان عليها أن تصعد عليها أولاً ، وبقى السؤال لماذا ؟ وإلى أين تظن أن توصلها هذه الخطوة .

إلى أين تود الوصول .... إلى أين ؟

صدرت مني زفرة قوية ، وأنا أتقلب على السرير ،أشد الغطاء عليّ حتى لا أظهر لحميدة أني لازلت مستيقظا ، لكنها اعتدلت وقالت : حرام عليك نفسك .

- هو إنتي لسة صاحية ؟

- أنا ما نمتش عشان أصحا ، أنام إزاي وإنت عينيك ما غفلتش ، هو دا اللي اتفقنا عليه ؟

- غصب عني يا حميدة مقدرتش .

- براحتك يا عبده .

- قالتها وهي تهم بأن تقوم من السرير ثم واصلت حديثها : ما هو باين إن ماليش خاطر عندك .

- جذبتها من ذراعها فاقتربت مني حتى باتت في حضني قلت : إياكي تقولي كدة تاني ، إنتي عندي بالدنيا ، وما فيها يا أم عيالي ، بس الحكاية دي أثرت فيا قوي ، هزتني من جوة، كانت أكبر من إني أحتمل ، إنتي عارفة عبد المحسن دا كان

أقرب ليا من عوض ، كان زيي في حاجات كتير قوي حتى في المدرسة مكناش فالحين في العلام زي بعض مكناش زي عوض ومسرودة ، عمر الدنيا ما فرقتنا أبدا حتى في الحرب كنا سوا ومع بعض ، كنت بعتبره أنا وخاصة بعد سنين خلافي مع عوض وكانت مسرودة السبب .

- كان بيحبها ؟

- عوض مكنش بيحب حد ، كان غاوي يمشي مع البنات ويجي قدامنا ويحكي عمل إيه وياهم بدون خشا ولا حيا ، كنت أقوله آه لو وقعت في إيد حد من أهاليهم ، يوم ما شفتهم سوا مقدرتش أمسك نفسي كانت أول وآخر مرة أضربها وفرحت ساعتها إنهم كانوا خرجوها من المدرسة ، أما عوض كنت هقتله وقاطعته لحد ما الأيام جمعتنا تاني ، شفت بني أدم جديد غير اللي كنت أعرفه نسيت وقتها أي غضب جوايا ، لكن الخسيس عبد المحسن ....

- خاف من فقره .

- عمري ما عاملته إنه فقير وأنا أغنى منه ، أبويا كان أفقر منه لما اتجوز أمي بنت العز وصاحبة الأرض ، اتجوزها في النور مش في الخفا ، عمر الفقر ما كان سبب لنخون ولا الفقرا عاشوا ليخونوا ، لأ لأ .

- طيب ياللا قوم اتوضى وصلي الفجر وادعي ربنا يزيح الغمة .

- يا رب .

بعد أن صليت وضعت حميدة أمامي صينية الطعام وقالت : الدنيا نورت هروح أبص على أبويا وأحط له لقمة ياكلها .

- ماشي بس مش هاكل إلا لما تيجي .

- كل إنت تعبان .

- مش هاكل إلا لما تيجي يا أم محمد ياللا بسرعة .

ذهبت وتركتني أجلس في صحن الدار ومعي محمود الصغير، سمعت صوت عوض يناديني فخرجت إليه حاملا طفلي على يدي ودعوته للدخول فقال : قلت أعدي أطمن عليك قبل ما أروح المستشفى .

- كتر خيرك يا عوض تاعبك معايا .

- ما تقولش كدة دا إنت أخويا .

كرر كشفه ثانية وقال : الحال زي ما هو ، مش نافع طول الليل بتفكر .

- أنا منمتش م التفكير .

- عينك كمان باين عليها قلة النوم .

- مش قادر ما افكرش يا عوض .

- إنت مش قلت لي في يوم لما مراتي سافرت اللي باعك بيعه ولا تبكي عليه وأنا النهاردة بقولك اللي باعك بيعه .

- حميدة قالت لي كده ، بس إنت عارف كل ما أحاول أزيح الفكر من راسي يجيني تاني أشد وأقوى ما هدي إلا لما استنتجت شيء غريب .

- هو إيه ؟

- إنت طول عمرك عارف إن مسرودة دماغها كبيرة وما في حاجة بتعملها إلا وليها سبب ، هيا ما بتحبش عبد المحسن وإلا كانت بينت من زمان ، هيا اختارت عبد المحسن لسبب في دماغها ، هو بالنسبة ليها سلمة لشيء مش عارفه .

- واشمعنى هو ؟

- فقير وبيحبها وتقدر تتحكم فيه وتتصرف على كيفها وهي متجوزة وهتخلص من إلحاحنا عليها كل شوية .

- ولما هو كده ، ليه اتجوزته في السر ؟ ليه ما قالتش لما الغرض منه تخلص من إلحاحكم عليها تتجوز .

- هو دا اللي نفسي أوصل له وكمان إيه اللي عاوزة مسرودة توصل له ؟

- بجد مش عارف ، تصدق ساعات كنت بحس إنها رضيت تتغصب على جوازها الأولاني لتحقق كل اللي هيا عاوزاه من غير ما حد يقولها كلمة .

- وكان إيه دراها إن جوزها هيموت .

- مش ممكن كانت قررت إنها تسوق اللوع عليه لحد ما تكرهه فيها وتقنع كل اللي حواليها إنه الوحش القاسي مستغلة موضوع طلاقه القديم بس هيا طلع حظها حلو في إنه كان راجل ما يتعاشرش .

- تفتكر كده ؟

- دا ظن والله أعلم .

- كأنه حقيقي هيا اتغيرت كتير بعد ما قعدوها في البيت .

- بالظبط كده .

صمت برهة ثم واصل كلامه قائلا : عارف زمان أنا كان لا يمكن ألعب من ورا ضهرك معاها هي اللي عطتني الإشارة ، وإنت عارف إنها كانت حلم لأي حد ، كان نفسي أخترق عالمها وخاصة إنها كانت بتنافسني في المدرسة ، بعقلي الصغير وقتها فكرت إني اشغلها مكنتش أعرف إنهم هيطلعوها من المدرسة والسكة هتفضى قدامي ، ولما طلعت وخلاص الطريق

حلي وراحت منافستي الوحيدة مقدرتش أسيبها ، كانت بتقدر تخليني أرجع لها تاني ، فيها حاجة كانت بتمحي شخصيتي قدامها ، كنت بانسى ساعات إنها من سني وأحس مرة إنها أمي ومرة أختي الكبيرة أكتر كتير من إحساسي بيها إنها حبيبتي ، لما جيت ووقفت بيني وبينها بعدت عنها وبدأت أفكر لقيتني لا يمكن أكون ليها ، كنت هعيش وياها وأنا مش نا ، عرفت أد إيه عندها عقل مش ممكن حد يتخيل مقدار ذكاؤه .

- يمكن تكون بتتكلم على مسرودة صحيح ، بس واحدة تانية معرفهاش ، أنا معرفش غير مسرودة أختي وأحيانا خالتي .

- علاقتك بيها مختلفة هيا في النهاية خالتك ، لكن لو كانت بنت خالتك مثلا كنت أكيد هتحبها وهتقع في شباكها وساعتها كنت هتحس باللي أنا حسيته واللي عبد المحسن هيحسه وهيفوق له في يوم ، وإوعاك يا عبده لما يجي ندمان تقفل في وشه الباب ، أنا متأكد إنه غصب عنه ، ودمع عينيه إمبارح يقولك .

- غصب عنه إزاي ؟

- هو قال إنه طول عمره بيحبها بس مكنش قادر يقول وهو عمره ما كان في طبعه الخيانة وإنت عارف وبعد اللي قلناه دلوقت ، واللي إنت نفسك استنتجته في إن عبد المحسن

درجة سلم لازما تطلعها مسرودة يبقى الغلط كله مش عليه لوحده .

- كان لازم يجي ويقولي مش يسمع كلامها كده على طول .

- اسألني أنا على اللي بيحب وما يصدق يلاقي حبيبه قدامه فاتح له السكة بينسى كل شيء وكل حاجة ، وإنت نفسك مش كنت عاوز تعيش في دار حميدة لمجرد إنك تكون وياها .

- دي حاجة ودا حاجة .

- كله منفد على كله وآهي لخبطة المهم صحتك يا سي عبده .

عندها دخلت حميدة وقالت : قله يا دكتور عوض دا أنا غلبت معاه .

- وأنا كمان يا أم محمد بس هعمل إيه في دماغه الناشفة .

قلت : اقعد ياللا نفطر سوا .

- لا يا اخويا أنا عندي مستشفى .

- مش قبل ما تفطر ، علقي ع الشاي يا حميدة .

تناولنا افطارنا معا ثم انصرف لعمله وتركني وزوجتي التي أبت أن أخرج من الدار وأنا مريض ، جلست إلى جواري

وحولنا محمد ومحمود ولفترة نسيت ما حدث وأنا أداعب طفليّ الجميلين وأمهم الأجمل .

إحساسي وأنا معهم أعجز كثيرا عن وصف كنهه ، ولكنه بالتأكيد إحساس كل أب ، حين كنت صغيرا كنت أرقب في عيني أبي ابتسامة تفوق ابتسام وجهه فقد علمته قسوة الحياة التجهم وإن كان قلبه حنونا ، ورث أمه جدتي قوت في صلابتها وقوتها وحنانها ، لكن عينيه كانت تخبرني بما يخفيه من حب ، كانت سعادته في جلوسه إلى أمي وأنا ألهو حولهما ومعي مسرودة ، سنوات قبل أن تتسع الدائرة وتشمل أخواتي البنات وتتسع معها ابتسامته أكثر وأكثر ، رغم رغبته الملحة أن يكون لي أخ ، لكنها إرادة الله ، وهو مؤمن بها .

لازلت جالسا أراقب طفليّ وزوجتي التي تعمل بالبيت بدأب ، ونشاط ،وهي تستمع إلى الراديو الذي كان يشدو بأغنية لمطربة جديدة رأيتها في السينما في فيلم عودة الابن الضال ، كانت تغني (لسة الطيور بتطن والنحليات بتزن والطفل ضحكه يرن مع إن مش كل البشر فرحانين) .

بحق مهما كثرت البلايا والنكبات فلازالت الطيور تشدو وتغني والنحل لن يتوقف عمله ، والطفل أبدا لا يوجد ما يعكر صفوه ، لذا تماسكت وحملت طفليّ وخرجت من الدار وحميدة تسألني : على فين ؟

- هخرج أتمشى والعيال على ما تخلصي شغل .

حملت محمود وسار محمد إلى جواري وكلي فخر بهما، ذهبنا لبيت جدهما لأمهما ، وقد تعجب لرؤيتي وقد أخبرته حميدة أني مريض ، طمأنته أني صرت بخير .

تركنا العجوز وانطلقنا نسير بين الحقول فإذا بي قرب شجرتي عند حقلي ، بعدت كثيرا وسرت طويلا وأنا أحملهما كلا على كتف ، كانا كعصفورين بالنسبة لي لم أحس بهما وإنما شعرت بمداعباتهما ولعبهما في طاقيتي وقبلاتهما التي يغمران بها وجهي .

لقد محيا كل أثر لموضوع مسرودة من داخلي فهي لا تستحق أن أحزن عليها ولا زوجها من كان صديقي يستأهل ان أذرف عليه دمعة واحدة ، كل ما أريده هو معرفة لماذا فعلا ذلك ؟ وما الذي تريده مسرودة ؟ عندها فقط سيرتاح قلبي ويهدأ ، أما قبل ذلك فلا ، إن ما أفعله الآن هو التناسي .

لم يمر وقتا طويلا حتى حدث ما هو أكبر من فعل مسرودة، فقد صحوت ذات يوم على واقع مرير كاد يسحقني سحقا .

(١٦)

كنت ببيتي ذات مساء حين سمعت طرقا شديدا على الباب، وصوت نسائي يناديني فذهبت مسرعا استطلع القادم فإذا بأختي التي تعجبت لمجيئها ، وفزعت لمرآها فقلت : خير جرى إيه ؟ إيه اللي جايبكم دلوقت ؟

بكت عايدة وهي تقول : أبوك عيان أوي ودكتور عوض عنده .

- أبويا !!!

صرخت غير عابئ بشيء دخلت لأضع جلبابي علي، وآخذ عباءتي، عدوت بفرسي نحو القرية تاركا البنات وزوجتي خلفي ،وصلت دارنا ، كان أبي يئن ويتوجع، ما رأيته يوما مريضا ، لم يُصب حتى بنزلة برد ، كان كالطود ، كما المارد ما في شيء يستطيع أن يهزمه ، وما رأيته ضعيفا قط إلا يوم وفاة أمه.

اقتربت منه وقلت : مالك يا با إن شالله كنت أنا .

التفت إلي عوض وقلت : ماله أبويا يا عوض فيه إيه ؟

- لسة مش عارف بالظبط، لازم أنقله المستشفى لازمه أشعة وتحاليل قبل ما أقرر ولازم يشوفه أخصائي باطني .

الكثير والكثير مر علي ولكنه أبدا لم يكن مثل ما واجهني الآن ، إنه أبي قطعة من روحي ، مثلي ، قال الأطباء ليس في الإمكان أبدع مما كان ، كلها أيام ، الحالة خطيرة ولا يجدي معها أي دواء ، تأخرتم .

لم يشك ، لم يقل أنه يعاني أبدا ، كيف حدث هذا مرة واحدة ، لم يجبني أحد بات عليّ انتظار النهاية ولا أصعب على المرء نفسه من أن ينتظر موته ، شيء صعب وعر أن تعرف أنك أقرب للموت ، على شفا حفرة منه يحيط بك يمنى ويسرى أماما وخلفا ، ولكنك لا تعلم متى ؟

اليوم ...... غدا .... تلك الساعة .... هذه اللحظة ، لا تعلم .

جئت للدنيا دون أن تطلب لتدخل ملعب الحياة ، تبقى كثيرا على دكة الاحتياطي ، تشاهد اللاعبين من بعيد دون أن تشارك في تلك المباراة الطويلة المتوجب عليك لعبها شئت أم أبيت ، وحين يحين وقت نزولك الملعب لا تعرف كم من الوقت ستستمر بداخله ، ومتى يعلن حكم المباراة نهايتها بإطلاق صافرته .

لذا فإنك تعدو وتعدو في كل اتجاه ، وإذا بصافرة تنطلق ،لكنها ليست من حكم المباراة ، إنها من حكم الخط فقد

أخبره المدرب بضرورة تبديلك، عليك أن تعود لدكة الاحتياطي لترقب المباراة من بعيد ، فلقد انتهى دورك للأبد وستظل هكذا تنتظر حتى النهاية التي تدعوها لتأتي ولكنها لا تأتي إلا في موعدها المحدد سلفا .

الأصعب والأوعر أن ترقب أحدا يموت ، عزيز عليك تراه يوما بعد يوم يضمحل ينمحي ، يتألم ، يتأوه وليس بيدك أن تفعل شيئا سوى ذرف الدموع ، وأن تحصي الأيام ، لا تعرف هل تتمنى بقاءه أم ترجو مماته ؟ حتى يتخلص من ألامه في لحظة تتخلص أنت فيها من أنانيتك .

ليال طويلة بين البيت والمستشفى أمضيتها معه ، حاولت التماسك بشتى الطرق فأنا رجل جيش من النساء عليّ أن أبقى صامدا ، أمامهن فيكفي إنهيار أمي التي بعد لا تصدق أنها ستفقده بعد عشرة ثمانية وعشرون عاما .

وها قد انطلقت صافرة الحكم وانتهت مباراة أبي الحافلة والطويلة ، مات أبي وتركني وحيدا بلا سند فقد كان سندي ومصدر قوتي ، ربيع أيامي كلها .

بكته كل القرية وكل من يعرفه ويعرف دماثة خلقه ،ورغبته في مساعدة الآخرين ، وأمانته كتاجر وسمسار ، حتى مسرودة رغم قطيعتنا لها كانت تأتي للمشفى ، تجلس إلى جواره ، وتنتحب فهو بمثابة أب لها لم تناديه يوما إلا أبي .

وقفت أتالقى عزاء أبي وأنا الحزن ينهشني غير واع لشيء ، لا أحس سوى بليتي التي بُليت بها .

إن صمتُ وتكلم نطق بما في نفسي وإن صمتَ وتكلمت نطقت بما في عقله ، لن يعوضني العالم فقدانه أبدا ، لو ظللت أحكي عنه ما كفيته حقه ، وما استطعت ذكر كل شيء عنه .

أخذتني زوجتي في حضنها بعد العزاء ، ألقيت برأسي فوق كتفها قالت : عيط يا عبده ما تسيبش الحزن يقهرك .

- عارفة زمان يا حميدة كان ياخدني أنا ومسرودة قدامه على الحمار ولحد الغيط كان يغني معانا ، أغاني جميلة مش عارف كان بيجيبها منين ولا حافظها من مين ، ولما يبقى رايق يغني للست أم كلثوم ويحكي لنا حكايات وحواديت لحد ما نام ، عمره ما قسي عليا ولا حرمني من حاجة .

كان بيفرح لما يلاقينا بنضحك، في رمضان لازما قبل الفطار نبقى معاه في الغيط عند شجرة التوت ، نقعد نلعب ونجري حواليه وهو قاعد يقرا قرآن ، أبويا مدخلش مدارس بس اتعلم في الكتاب على إيد أبويا الشيخ جاد ، كان بيعرف يقرا ويكتب كويس ويحسب كمان ، الشيخ جاد كان بيقولي أبوك لو كان دخل مدارس كان زمانه بقى حاجة كبيرة أوي ، إنت طلعت خايب لمين ، لما كنت أقابل حد ويقولي سلم على

أبوك ويقعد يشكر فيه ويدعيله أبقى طاير م الفرحة والدنيا مش سايعاني ، دا أبويا يا ناس .

ساعتها بكيت كثيرا على كتف حميدة التي شاركتني البكاء وتحملت لحظة ضعفي واحتوت حزني حتى لملمت شتاتي .

انقضت أيام العزاء وقلت الناس التي أتت لتقديم واجب العزاء وكان عليّ اتخاذ موقف تجاه مسرودة التي لم تفارق البيت لحظة ولم يكن في الامكان محادثتها ، هممت بالحديث إليها ولكن حميدة منعتني ووقفت حائلا أمامي إلا أنني صممت فأزحتها عن طريقي ، وذهبت إلى حيث تجلس ، وأمي المكلومة فقلت وأنا أقبل يد أمي : بعدئذنك يا أمة .

قالت في وهن : خير يا عبده ؟

- هتكلم مع الست مسرودة ومش عايزك يا أمة تقاطعيني ولا تزعلي مني عشان خاطري .

- مفيش حاجة يتزعل عليها بعد اللي راح يا ضنايا . قالتها ثم دمعت عيناها .

وحتى لا يلهيني بكاء أمي أدرت وجهي بعيدا عنها مسرعا والتفت لمسرودة وقلت : العزا خلص والواجب وعملتيه ، مش عايز أشوفك هنا تاني ولا حتى في بيتي ، وإذا كان على أختك اللي هيا أمي ممكن تشوفيها في دار جدي أو دار حد من أخواتك دا إن رضي حد منهم يدخلك داره .

كانت تستمع إليّ ودهشتها لا أستطيع وصفها وقالت بعد صمت : بتطردني من دار أبويا يا عبده ؟

- ما تقوليش أبويا وأمي هما مش كده ، أمي تبقى أختك ، وأختك تعرفيها في دار أبوكي ، وبعدين بتتكلمي عن الأب والأم معملتيش حسابهم ليه ، كانوا يبقوا لك إيه لما رحتي اتجوزتي من وراهم ؟

- كده يا عبده ، بأة كده .

قالتها وهي تلملم ملابسها ، وترتدي طرحتها فقلت : إنتي اللي عملتي في نفسك كده ، وقفلت أحضان كانت مفتوحة لك وقلوب كانت بتحبك ، جنيتي على نفسك مع إني مش مصدق إنها فارقة معاكي ، أنا فاهمك كويس وعارف إنك عاوزة تبيعي وما يبقى لك حد ، عاوزة تخسرينا مع إن اللي مالوش أهل بيشتري له أهل ، وإنتي بعتينا ليه مش عارف وأوعي تفتكري إن إحنا ممكن نشتري حد بايع .

- أنا خالتك وأوعى تنسى دا وإنت بتكلمني .

- خالتي كانت تحاول تكبر في نظري مش تعمل كل حاجة تصغرها في عيني ، خالتي لما كانت تشتري أهلها مش تبيعهم بالرخيص . اتفضلي بأة .

مضت وقد استفزها حديثي وأبكاها ،وأشعل كلامي نارها، مضت ونظرات عينيها تشي بتحد غريب .

(١٧)

مرت عليّ الأيام ثقيلة يدفعني الحزن في تياره ، ولا أعلم على أي شاطئ سوف أرسو ؟ و إلى أي مكان سوف تمضي بي حياتي الحزينة ؟

ضحكات طفلي اللذان لا يعيا ما يحدث وحدها ما كانت تجعلني أبتسم، ومحاولات حميدة اليائسة ادخالي للحياة من جديد تجعلني أثابر على المقاومة ، الشيخ جاد ساعدني كثيرا ووقف إلى جواري لتخطي المحنة وتحديها .

شهور طويلة مرت ، لم أنس أبي ، لم يفارقني طيفه ، وإن كنت قد استعدت بعض نفسي ، وصرت أشغل نفسي بالعمل وزدت حجم عملي فأنا لم أعد أنفق على أسرتي ، وإنما على عائلتي أمي وأختي ، عليّ أن ألبي طلبات البيتين ، لذا زدت من نشاطي بالسوق ، وعملت على زراعة محاصيل تدر ربحا أكبر مثل الخضروات دورتها قصيرة وربحها عالي ، منذ مدة وأنا لم أزرع القطن .

كان القطن احتفاليتنا ، كل فرح في القرية يكون بعد جمع القطن ، من أراد بناء بيته أو توسيعه ، حتى تنجيد المراتب عليه الانتظار حتى جمع القطن ، كانت حياتنا مؤجلة من شهر فبراير حتى أكتوبر منذ بدء تجهيز الأرض وزراعتها حتى جمعه ورغم

أنّ شهر أكتوبر هو شهر بدء العام الدراسي ومنتصف سبتمبر قبله إلا أنّ كل مدرسة تتوقف لأن تلاميذها هناك بالأرض يجمعون القطن ، كل طفل منهم يحصد يومية يعود بها لأهله في موسم الانفراجة على كل القرى ، ويا سوء أيامنا لو تغلبت علينا الدودة وأكلت المحصول ليكون عام بؤس وشقاء على أهالي القرية المساكين .

القطن ذهب مصر الأبيض ، الذي كان في الصدارة ، وله شهرته الواسعة ، علمت منذ مدة أنه سيتراجع ، لم يكن ذلك تخمينا ، ولكن لأن الحال بدأ يتدهور ومطالب الحياة في تزايد مستمر و لم يعد بوسعنا انتظار ثمانية أشهر ، وأكثر حتى نستطيع تلبية واحد من مطالب حياتنا الكثيرة ، ومع تزايد غلة وربح الفدان من محاصيل أخرى لها دورة حياة قصيرة .

عامين مرا على وفاة أبي ، زاد رزقي ووسعت تجارتي بفضل دعوات أمي وزوجتي التي رزقت وهي بطفلة كنت أتمناها منذ زواجي ، كنت أود تسميتها مسرودة أما الآن صرت أبحث عن اسم من تلك الأسماء الجديدة التي انتشرت أرادت زوجتي اسم أميرة أو مروة ورجعت ثانية وقالت : لأ البت في التمثيلية كان اسمها دينا حلو دينا دا .

لم أرد أن أغضب حميدة وأسمي البنت باسم أمي زينب تركتها تنتقي ما تشاء من أسماء ورسا الأمر على مروة .

بثت مروة الفرحة في دارنا ورثت جمال أمها بوجهها الدائري ، وملامحها الطفولية ، كان لضحكتها أثرا لا يعادله أثر على نفسي ، وقلبي كنت أصحبها معي في كل مكان رغم غضب أخوتها ، لم أكن أحبها أكثر منهما ، لكني لا أعلم فلقد زاد الخير بمقدمها ، أحسها وجه خير عليّ ،وهي الفرحة التي دخلت داري بعد فقدان أبي .

في خلال العامين اختفت مسرودة عن البلد تماما ، وأغلق دارها وتساءلت : هل كفت عن العمل ؟ هل تستطيع العيش براتب زوجها في الحكومة فقط ؟ لم يكن بمقدوري أن أسأل عن واحدة من أهلي رغم أن الكل يعلم أني على خلاف معها.

حملت لنا السنوات أنباء افتتاح مسرودة لمطعم كبير تحت بناية هي صاحبتها في واحد من أهم وأكبر شوارع طنطا ، عرفنا أن البنات اللائي كن يعملن معها انتقلن للعيش معها في تلك البناية ، وأنهن لا يأتين إلا يوم الجمعة في أجازة حاملات معهن نقود تخرس ألسنة أهاليهن حتى لا يتحدثوا في أمر المبيت أسبوع بأكمله خارج بيوتهن .

كل شهر وكل أسبوع يمر أسمع حديثا جديدا ، أمهات البنات يروين الكثير عن حياة مسرودة الجديدة ، يحكين عن البيت والسيارة الحديثة ، عن زوجها الذي سافر للخليج ولم

بعد ، تكلمن عن ملابسها التي صارت مثل ممثلات التليفزيون، كثير من الأقاويل تتردد على ألسنة الناس تدفعني دفعا لمحاولة رؤيتها ، ولو من بعيد .

حاولت محادثة عوض في الأمر ولكنه صار مشغول بعيادته ، وزوجته الجديدة ، فلقد تزوج واحدة من بنات القرية المتعلمات ، فتاة لم يسبق لها الزواج رضت به وبولديه ، ولقد استطاعت أن تجذبه نحوها حتى أحبها بشدة ، ونسى عشقه لامرأته التي لاتزال تجمع المال في الخليج .

ذات يوم كنت جالسا والحاج مجدي مع بعض الرفاق من بلدتي وبلدته ننهي خصومة بين تاجرين من تجار السوق ، أخذنا الوقت وأمسى بنا الليل ، ولم يبق بعد أن انفض الجمع غيري والحاج مجدي ، مع دقات التاسعة قدم إلينا عوض بسيارته ، سلم علينا وجلس معنا : فقلت خير مفيش عيانين النهاردة ولا إيه ؟

- تعبت والله يا عبده ومقدرتش اكمل العيادة .

مجدي ضاحكا : إن لبدنك عليك حق .

عوض : عنداك حق والله ، الواحد عامل زي التور المتعلق في ساقية .

ضحكنا ، تناولنا الشاي الذي أعدته حميدة وقلت : تصدق يا عوض إن عبد المحسن في الخليج .

عوض : عارف .

قلت : مين قالك ؟

عزض : هو جاني سلم عليا قبل ما يسافر ، كان نفسه يجي يسلم عليك بس خاف منك .

قلت : لا والله له وش يا أخي !!!

قلتها في عصبية جعلت عوض يقول : بالراحة على نفسك إنت عندك الضغط .

- وهو مين السبب ومين جاب لي الضغط ؟ مش هو وهيا. عوض : قلت لك هيفوق وهيعرف إنه سلمة وأهو فاق وسافر، وبعد عنها ، ومن نهارها ما نزل رغم إنه بعت قالي إنها طلبت منه يترل وهو مقدرش .

- يعني إيه ؟

مجدي : صحيح يا دكتور يعني إيه كلامك دا ؟

عزض : مسرودة اتجوزت عبد المحسن لسبب في دماغها مقدرناش نوصله بس هو عرفه بعد جوازهم بكم شهر .

التقت عينا عوض بعيوننا الملتهفة وتوقف برهة عن الكلام شعرت بأنها دهرا بأكمله فدفعته دفعا ليكمل فقال : هو مارضيش يقولي السبب أبدا ، كل اللي قاله أنا عرفتها على حقيقتها .

أدرت دفة الحديث بعيدا عن سيرتها التي تصيبني بالضيق .

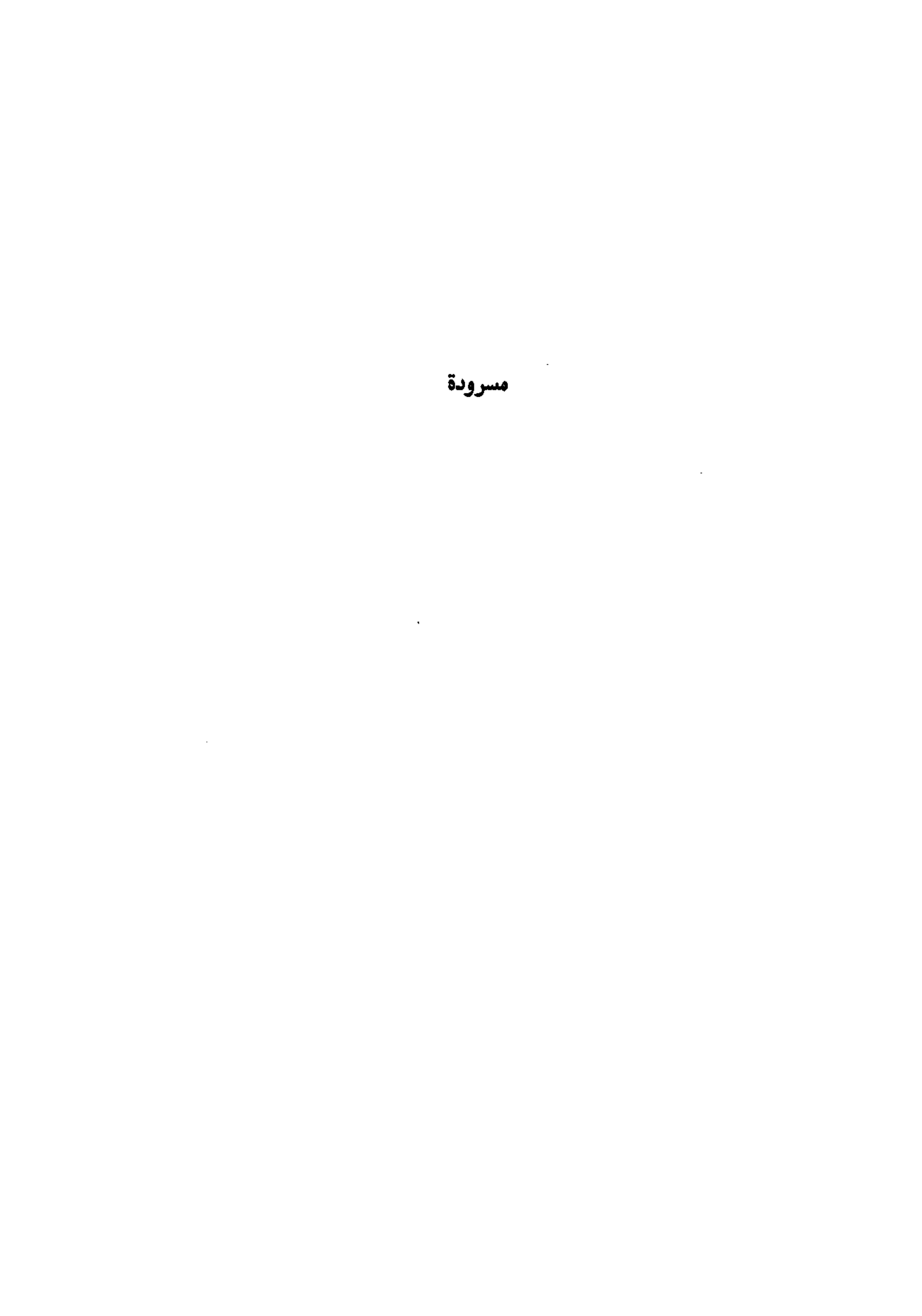
حاولت كبت فضولي داخلي حتى لا يدفعني لتتبع أخبارها.

بت أعمل وأرعى بيتي ، وعائلتي ،لا يشغلني غيرهم ، التحق أولادي بالمدارس ، رأيتهم يكبرون أمامي شيئا فشيئا ، أسعد بهم وبنجاحهم في دراستهم ، لم يكونوا مثلي والحمد لله وإن كان محمد رغم تفوقه الدراسي يميل للعمل معي وشراكتي كان تاجرا بالفطرة .

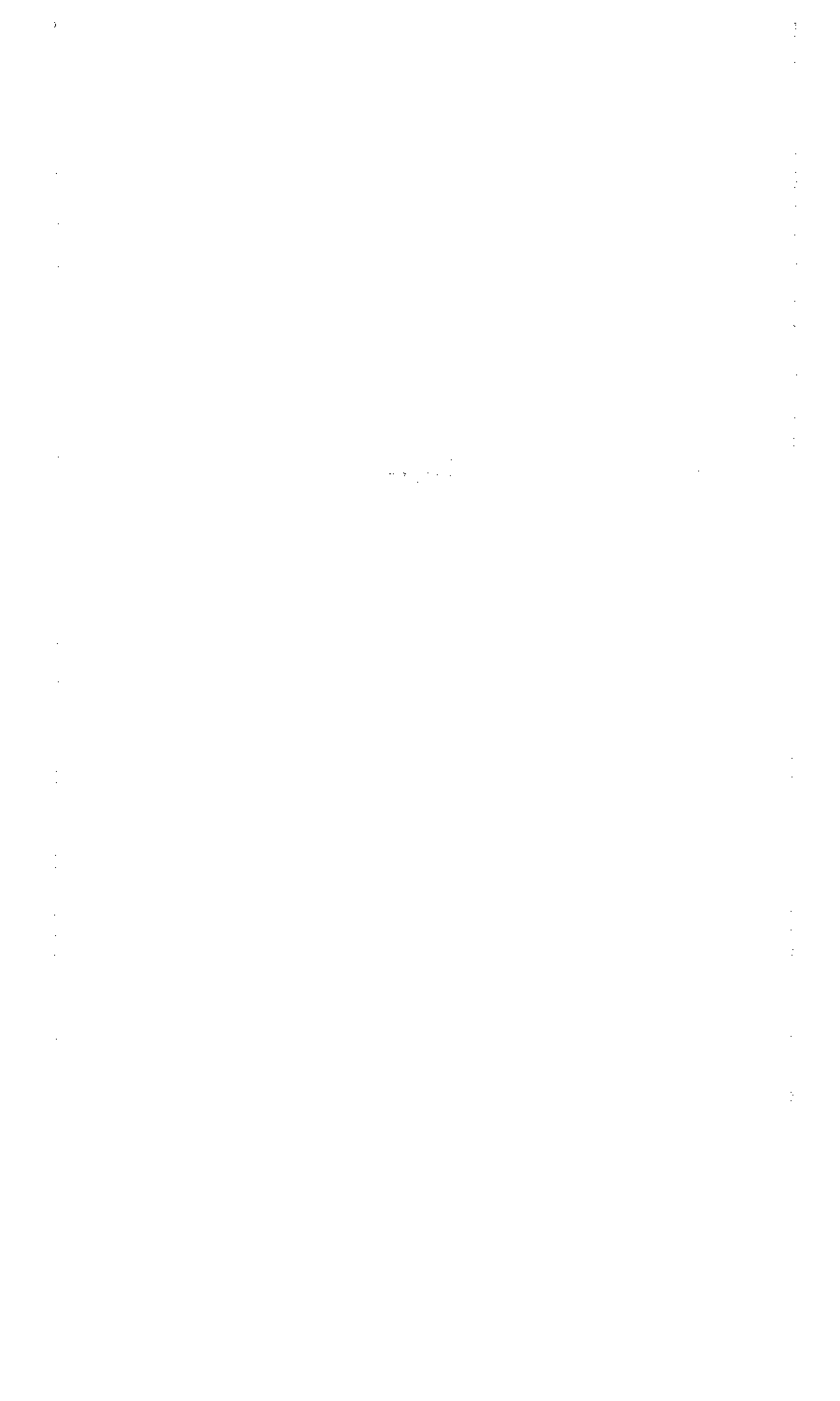
نسيت أو تناسيت مسرودة التي ابتعدت عن حياتنا حتى أنها لم تحضر جنازة خالي زينهم أو حتى خالي عبد الله ، لم تأت حتى لتقديم واجب العزاء رغم أنها صاحبة المأتم .

لم أذكرها إلا حينما مرضت أمي وأرادت رؤيتها ، حاولت مماطلتها ولكني فشلت ، لقد كانت تلح بشكل غريب ، لم أكن أعرف ماذا أفعل بعد كل تلك السنين التي مضت .





مسرودة



(١)

عرفتم عني الكثير والكثير ، سمعتم من طرف واحد دون أن تعرفوا مني أنا مسرودة التي أحببتموها بنت جميلة وسيدة مجنيا عليها ثم امرأة متمردة خائنة لأهلها وعزوتها .

مجيء عبده إليّ بعد كل تلك السنين حرك بادخلي الساكن الراكد من مخزون العمر ، مرَّ شريط حياتي أمامي كأني أشاهد فيلما سينمائيا ، عدت للوراء لمسرودة ذات الضفائر التي تشارك أخوها عبده حياته ملاذهما الساقية وشجرة التوت ، يتعلقان بالصفصافة يتأرجحان،وهما يتمسكان بأفرعها المسكينة، يذهبان للمدرسة البعيدة سيرا على الأقدام .

أحببت العلم والتعلم ودفعت ثمن جمالي حرماني من التعليم ، ومواصلة الحياة التي تمنيتها ، لم أكن فتاة طيبة كما ظن البعض أو كما إعتقد الجميع،كنت أواري قدرا من الغرور والإحساس بالذات ، أحسست دائما أني لم أخلق لمثل تلك الحياة ، علمت أن جمالي قد يكون سببا في سعادتي ، ولم أكن أعلم أو أدرك في سني الصغيرة أنه نكبتي .

أقبلت على الدراسة بشغف ، وتقبلت منافسة عوض راضية، كلما هزمته كلما كنت وموعد مع السحاب وأني والنجوم سواء ، وأني أقترب من مرامي .

اقترب مني عوض ظانا أنه بانشغالي بهواه ، وهيامي به ، وبوسامته ، وكونه ابن عائلة كبيرة سيمنعني عن هدفي ، لم يكن يعلم أنه هو هدفي ، وأنني أنا التي أود أن أشغله ليبتعد عن منافستي ، لكن علاقتي بعوض كشفت لي جانب هام بداخلي ، وهو أني أملك القدرة على اجتذاب أي إنسان لحياتي ، وتطويعه لينفذ ما أريد ، وجدت بداخلي الأنثى المراوغة ، الأنثى الحية .

تتعجبون !! أعلم ذلك لم أعتبر هذه وصمة أو صفة سيئة ، وإنما اعتبرتها سمة غالية ، وددت تنميتها ، راقني إحساسي بالسيطرة بالامتلاك رغم أني أمام الجميع الوديعة ، الطفلة البريئة لا أحد يعلم ما بداخل عباءتي سواي .

لم يصدمني في الحياة سوى براءة عبده ، ونقاءه الزائد عن الحد ، حبه الكبير لي كان يطوقني ، يقيدني قليلا ، كان يظنني ملاكا ، ومثلاً له لذا عشت سنوات ، وأنا أحاول أن أحفظ صورتي أمامه ، كما أنه كان هناك رابطا خفيا بيني وبينه ، تقارب عمرينا ، اجتماعنا على ثدي واحد جعلني بحق أخشاه وأخشى عليه ، لم أصطدم به مرة واحدة قبل تلك الحادثة حين اكتشف علاقتي بعوض ، لم يكن باستطاعتي تركه بعد أن أخرجوني من المدرسة ، تلك الفعلة التي ارتسمت بداخلي نقطة سوداء سرعان ما توهجت ، واشتعلت نارا تكويني ببطء وتلذذ، حرماني من الدراسة ، ومن أحلامي لمجرد أني جميلة كان له أثرا لم تمحه السنون، وبعد أن كنت أشغل عوض عن

منافستي صرت أتعلق به خشية ألا يضيع الحلم كاملا ، إنه سيكمل تعليمه ، سيكمل الطريق لماذا لا أكمله معه ، وعن طريقه ، لذا لففته حول إصبعي حتى صار خاتما ضيقا أحكمت لفه فبات فراره مستحيلا ، حتى ظهر عبده في الصورة ، وأفسد عليّ مخططي .

حين كنت أبكي في حضن عبده لم أكن أبكي اكتشافه لي أو خطأي أو بعد عوض عني ، وإنما كنت أبكي فشل مخططي، فأنا أعلم أن الجميع يخافون عبده ، فصاحب القلب الطيب الحنون الدافئ يملك جسدا قويا فاره الطول ، الجميع يخشى حتى هذره معهم ، لمسة يده مؤلمة فما بالك بدفعة منه ، كنت أعلم أن عوض سيبتعد فهو جبان بطبعه ، في لحظة وجدت كل شيء قد ضاع مني ، تبدد حلمي كما تبدد حلم البلد في استرداد كرامتها .

النكسة أو الهزيمة بالمعنى الصحيح كانت قد خيمت على الجميع ملقية ظلال الحزن في كل نفس ، وكل مكان ، كنت واحدة من هؤلاء الناس رغم صغر سني أدركت جيدا حجم المأساة ، كما أحس مأساتي ولكن أحدا لم يحس بداخلي فعقلي لم يقف عند هذا الحد ، لم أيأس .

كتمت أحزاني جيدا ورايتها كأن لم تكن ، بدات أفكر من جديد ، وأعيد حساباتي عليّ أجد لنفسي مخرجا .

لكن أي مخرج لفتاة ريفية بسيطة غير الزواج ، علموني الطهي ، والخبيز ، والعجين قبل أن أكمل الرابعة عشرة .

فشل عقلي في إيجاد طريقة لأكون تلك السيدة التي أحلم بها، أنا لست فقيرة ، وإنما من أسرة ميسورة الحال ، ألبس جيدا ، آكل جيدا ، لكني أحس أن تلك الحياة لا تكفيني ، لا أعرف ماذا أريد ؟ وما هي طبيعة الحياة التي آمل في عيشها ؟ أو التي أظن أنها ستروقني وأقنع بها ؟!!

كان لزاما عليَّ أن أنتظر الزوج الذي سيخرجني من قريتي أو من حياتي إلى الحياة التي تنتظرني . ترى مَنْ يكون ؟

كان عوض يستهويني أن حلمه يتماشى معي ، الجامعة ، وحياتها ، الخروج من دائرة الريف الضيقة للمدينة ،والعمل ، أحيانا كنت أفرح بمُدرستي بالمدرسة التي كانت تحكي عن مدرسة المعلمات ، وأيامهن بها أو في المدرسة الإعدادية كم كنت أنصت باهتمام لأبلة هدى وهي تروي ذكرياتها عن الجامعة ، وزواجها من زميل دراستها الأستاذ مهيب .

كثيرا ما كنت أتمارض حتى يذهب بي عبده للوحدة الصحية وأرى بعيني الدكتورة نجوى ، وهي ترتدي البالطو الأبيض ،وتعلق السماعة حول رقبتها ، لماذا لا أكون مثل واحدة منهن، ما يمنعني ؟ أنا جميلة وأفوقهن ذكاء وجمالا .... ليتني ما كنت جميلة !!!!!

إن أهلي هؤلاء لم يفعلوا سوى أشياء تزيدني كرها لهم .

قبل إخراجي من المدرسة بسنوات كنت ضمن الحفل الجماعي الذي استسلمت فيه لموسي الداية لتقطع مني جزء سألت لماذا ؟

قالوا : أدبا للبنت وحفاظا عليها وعلى شرفها .

تحملت الألم ، وهم يمسكون بي ، رأيت الدم يتدفق نهرا ، لم أفقد وعيي مثل الأخريات ، رأيت رأي العين كل شيء ، ليتجسم كرههم جميعا بداخلي ، ويصبح لا حصر له .

تواريت عن الناس وعن ضحكات عبده ، والآخرين حين كنت أمشي مباعدة بين ساقي ، تحملت الألم بلا دمعة ، وحين كان يحدث مثل هذا الاحتفال كنت أذهب بعيدا عند الساقية حتى لا أسمع أنين احداهما وأختفي بالبيت فلا أرى واحدة تمشي وقد تباعدت ساقيها ، وتلقى ضحكات زميلاتها قبل أي أحد ، رغم أنهن مررن بنفس التجربة الشنعاء ، وغيرهن ممن سيصيبهن الدور .

كان كل ما أفعله أنني اختزن بداخلي حقدا ، وكرها ، وبعدا عن هؤلاء الأهل الذين لا يفعلون شيئا في الدنيا غير إيلامي .

(٢)

أتى الزوج المنتظر ؛ ظننت أنني ابنة الحاج هاشم الجميلة سوف أحظى بشاب متعلم يعمل في المدينة موظفا ، وليس فلاحا ، رجلا اختاروه بعناية ليحظى بمسرودة ، إلا أنهم أتوا بشاب وسيم حقا يكبرني بعشرين عاما يعمل تاجرا وفلاحا ، لم يكون باستطاعتي الرد فأخي زينهم كلمته لدى أبي وأمي نافذة .

قابلته . التقيت عين اخترقتني منذ الوهلة الأولى ، ولأول مرة أجد عينا شرهة نهمة لا عينا محبة ، للمرة الأولى أجرب كيف يصعد الدم إلى رأسي فائرا لأن أحدهم نظر إليّ ، كلما التقيته وددت لو انكمش في بعضي فلا يبين حتى وجهي .

جعلني أكره جسدي الذي طالما عشقته ، وتأملته في مرآتي، كل قطعة فيه كنت أحبها ، وأرقب نموها يوما بعد آخر بشغف متطلعة لأن أرتدي مثل ما ترتديه .... النساء .

وكم كنت أسأل مرآتي عن جمالي كما الأميرة في الحكايات القديمة التي سمعتها في الراديو قبل أن تأكل التفاحة ، وتغرق في سباتها العميق حتى يأتي أمير الأحلام ، يقبلها فتفيق من سباتها .

ضن علي الزمان بالأمير ، وأعطاني هذا الرجل ، لم التقيه في فترة الخطبة أكثر من مرات تعد على الأصابع ، كان يجلس

إليّ بضع دقائق قبل أن يجره أخي زينهم للعمل ، وكأنه يطمعه في البداية بالجلوس معي ، يسحره ثم يأخذه .

تلك الدقائق القصيرة كانت عمراً بأكمله ، عمر حزين بلا لحظة فرح ، معه ودعت الفرح شيئا فشيئا حتى ضمتني وهو حجرة واحدة .

كلما اقترب يوم الزفاف كلما حاولت شحذ قوتي ، والتغلب على هذا الوضع ، شلني التفكير ، كيف أهرب من تلك الزيجة ؟

لم يكن بوسعي فعل أي شيء ، ما عليّ سوى أن أدفع نفسي دفعا للتحمل ، فالدنيا أمامي سوداء بلا بصيص ضوء ، لذا كنت عصبية ، اعتقد الجميع لخوفي من بداية الزواج كأي عروس تتوتر وتجبن ، تحملوني وهم يضحكون خلسة ، يظنون أني لا أراهم ، ولا أفهم فيما يفكرون .

وقبل يوم الحناء استسلمت لتلك السيدة التي أتوا بها لتجعل مني عروس ، لكنها كانت تؤلمني لا تزيني .

ظلت تعمل على ترجيج حاجبيّ ساعة تلفحني أنفاسها الكريهة ، وأنا أتحمل ، وأتحمل نزها شعر جسدي كله دون

آه. كل النسوة في الدار يضحكن ، ويغنين أغاني الأفراح المعتادة ذات المعاني المتوارية ، وكلما مررن بي في درس العذاب هذا يبتسمن ، وتقول إحداهن : علقة تفوت ولا حد يموت ، سبقناكي .

لم أكن أكلف نفسي حتى مبادلتهن الابتسام ، كنت أسمع فقط ويختزن عقلي الألم ويكره ، نعم يكره ، رغم علمي أن كل فتاة تتزوج تمر بهذا ، إلا أن كل واحدة منهن تفعله راضية لأجل رجلها حتى وإن لم تكن رأته من قبل ، إلا أنَّ فرحتها بالحياة الجديدة هي التي تجعلها ترضى بل وتفرح .

حلم الرجل المبهم كان يجعلها فرحة مستبشرة ، دخول عالم كان عليه العديد من المحظورات ، ونساء يتكلمن خلسة بعيدا عن الفتيات الصغيرات العذروات ، ويبتسمن في خبث حين تنطلق من فم إحداهن كلمة قبيحة أو تعليق ما ، أو حين تصف ليلتها كيف قضتها.

لكني رأيت رجلا أجبرت على الزواج به ، التهمتني عيناه حتى أصابتني بالقرف ، لم يكن بخيالي الذي أصيب بخيبة لم أحس بها من قبل ، خيبة أكبر من تلك التي أصابتني يوم حرمت من التعليم ومواصلة المشوار .

يوم الحناء امتلأ البيت بالنساء ، وساحة الدار الخارجية بالرجال، علت الزغاريد ، وأتى أخوتي بصحبة المزمار والخيالة، تسابقت النساء على الرقص واحدة تلو الأخرى ، بنات

أخواتي ، وبنات زينب الجميع أمامي ، أم العروسة تدور حول نفسها كما لو أن على كتفيها حمول الدنيا رغم أن نساء العائلة لم يكلفنها شيء ، فهي كالمثل فاضية ومشغولة ، كانت الواجهة مثالية لحفل زفاف إلا أن خلف وجهي المبتسم نارا حامية ، وقلبا يشتعل غلا ، وحقدا ، وكرها للناس أجمعين ، في تلك اللحظة حتى دموع عبده كرهتها لأنها ذكرتني بضعفي، وقلة حيلتي وضعفه فماذا فعل ؟ تشاجر من أجلي !! لكنه لم يأت بنتيجة .

عدت أقول لنفسي وما ذنبه ؟ يكفي أنه الوحيد الذي وقف أمام أخي متحديا في حين رضخ الباقون وكأن الأمر لا يعنيهم.

انتهى يوم الحناء وحل يوم الزفاف ، انقضى كل شيء وحانت اللحظة الحاسمة ، لحظة أن دخلت بيته ، دارت الدنيا بي شعرت بأن هناك شيئا يجثم فوق صدري ، كما أن الخوف ينحرني .

نعم كنت خائفة حد الموت ولولا تلك المساحيق التي واروا بها جمالي لرأيت وجها أصفر شاحبا .

بمجرد دخولي وهو الحجرة تبعتني أمي والقابلة وقاموا بما يجب عليهما فعله وسط صراخي وألمي وذهولي من استباحتهم لي رغم أنه السائد .

خرج الجميع لتعلوا الزغاريد وتطمئن القلوب ويقف زوجي منتشيا كأنه عبر سيناء .

(٣)

مضى موكب الفرح عائدا لأبقى وحدي معه ، وضعت صينية العشاء أمامه ، أكل بشراهة أثارت اشمئزازي ، لم أكن أشاركه ، لم تكن بي رغبة للطعام .

بدلت ملابس العرس ، ارتديت قميص نوم أبيض اشتروه لي من أم سيد الدلالة ، أخبروني أنه يجب علي ارتداؤه في هذا اليوم ، وهأنا أفعل كل ما يطلبونه .

غسلت وجهي ليبين شحوبه ، لكنه ما إن تطلع لي حتى زادت نظراته الملتهبة الشرهة ، ابتسم وأنا أعدل هندامي وقال : مالوش لازمة يا حلوة .

لم يعطني الفرصة افترسني ، فشلت كل محاولاتي للمقاومة ، لم أستطع التغلب على ثقله وهو جاثم فوقي يغمرني بقبلات كأنها لسع الذنابير ، ويده التي تتحسسني ، وتمر على كل قطعة مني ، وتضغط بقوة شعرت معها بأنين عظامي .

ألقى بنفسه داخلي وعقلي عنه يبتعد .

بعد أن فرغ استلقى إلى جواري تتلاحق أنفاسه وهو يضحك ، لا أعرف سبب ضحكه ، استعذب ألمي أم ماذا ؟

مدَّ يده التقط سجائره أشعل واحدة ، وبدأ ينفث دخانها دون أن ينطق ، وبين حين وآخر يضحك من جديد ، ظل هكذا حتى استسلم للنوم ، وعلا صوت غطيطه .

كانت تلك هي البداية ، إلا أنني أدركت بعد أيام قلائل أني سأملك هذا الرجل لو امتلك جسدي ، لذا كنت أتلاعب به أمنيه ، وأعطيه ما يشاء في الوقت الذي أريده ، ولكن أحيانا كانت تفشل لعبتي أمام رغبته الجامحة ، والتي لا تنطفئ .

كلما أطفأت ناره أغدق عليَّ ، لم يكن بخيلا كما ادعيت عليه ، وأخبركم عبده ، كانت تلك واحدة من خططي الكثيرة التي كنت أعدها خلسة .

اكتشفت فيما بعد وبالصدفة بداية ، ثم بتصريح منه بعد ذلك دون إلحاح مني طبيعة عمله ، أغرقته في الجنس وأخذت منه سره كله .

علمت أيضا أنه ما عرف زينهم إلا لأجلي ، بعد أن رآني في يالقرية من قبل ، سأل عني ، عرف من أكون ، ومن هم أهلي ، ومن منهم يستطيع التعرف عليه ومعرفتي من خلاله ، تحرى كثيرا حتى وصل لهدفه ، كما يفعل دائما .

وإن كان قد استولى على مبالغ كبيرة من زينهم مقابل أراض لا تساوي ما دفع فيها ، وأنه كسب من وراءه كثيرا ، وأن أخي الكبير الوقور صاحب الكلمة النافذة من الأشخاص الذين يسهل خداعهم فهم خلقوا لكي ينصب عليهم .

عرفت كل شيء عن عمليات كثيرة تمت أمام عيني دون أن يلمح لي أحد أي طرف ، بناء على رغبتي فأنا من أردت الاختباء ، لم اشأ أن أكون في الصورة بأي حال من الأحوال، كما علمت بتجارته للمخدارت وتفاصيل عملياته ، لم أكن مهمشة وكلما أخبرني كلما أعطيته ما يشاء من هوى لم أرده ، و لم أتقبله يوما .

كان عشقه وولعه بالجنس نقطة ضعفه وقد أخذتها لصالحي، بات عليٍّ بعد كل هذا أن أخطط للهرب منه دون أنا أكون أنا الملومة .

شعت أمام أختي زينب أنه بخيلا ويقطر عليّ ، وأنني أتضور جوعا ، كلما غاب يوما عن الدار أو أكثر دون أن يترك شيئا، لولا الطيور التي أربيها ، وآخذ بيضها خلسة ، فهو يصمم على بيعه واللبن والجبن الذي أصنعه بيدي ، ولا يتذوقه فمي لأنه لا يبقي على شيء .

زينب كانت طيبة بدرجة يصعب تصديقها لذا كانت تصدق كل ما أقول دون أن تناقشني أو تقل لي أية كلمة ، لم تسألني لماذا لم تأخذي كل يوم بيضة أو اثنتين لك ؟

هل يقف على يديك وأنت تجمعينه ؟

هل كان يزن اللبن كل يوم حتى لا تأخذي منه كوبا ؟

صدقت كذبي الغير محبوك - أضحك في نفسي كلما تذكرت جدتي قوت وهو تقول : كدب مساوي ولا صدق منحكش — وبرغم ذلك لم أحبك كذبي الذي جعل أختي تسرف في الحزن عليّ ، وعلى حالي ، كانت زينب عكسي تماما ، كنت أعلم أنها طيبة لدرجة الهبل ، كنت أفوقها ، وأمي ذكاء ، وفطنة وجمالا، كانت أمي تتصرف بفطرة الأنثى التي خلقها الله عليها، أما أنا فنيران الكراهية جعلتني شيطانة أتلاعب بهم جميعا ، لم أشك لأمي مباشرة وإنما شكوت لزينب

التي ستوصل لأمي كل الحوارات مختلطة بدمع ، وحزن ، وطريقة تجعل مستمعها يئن ، ويتوجع ، لذا كانوا يأتونني محملين بخيرات كثيرة أملأ بها دار البخيل زوجي الذي كان يظن أن كل هذا كرم زائد من أهل الأصول ، ولا يعرف ما سببه .

وكم تعجبت من نفسي صاحبة الثمانية عشرة ربيعا التي تتلاعب بكل الخيوط وبكل هؤلاء معتمدة على أنهم لم يفاتحوا زوجي لينفق على بيته تجنبا للمشاكل ، وذكر كلمة الطلاق ، اليمين الذي تهتز له السموات .

كنت سعيدة أرقبهم من بعيد وأرى الحسرة في عيونهم حين يرونني شاحبة وأتشكى .

كانت تسليتي الجميلة حين كنت أكتب خطاب لعبده وهو في الجيش ، نسجت خيالا لا حدود له محملا بحزن أعلم أنه يلمسه لكنه كان إحساسي بالذنب ، وليس كما ظن عبده أنه بسبب سوء زوجي الذي أرغمت على الزواج منه ، عبده لم يكن على علم بأي شيء فهم جميعا يعلمون موقفه من البداية ، لذا أخفوا عنه ما كنت أخبرهم به .

حين طالت أشهر زواجي ، ولم تبد عليّ بشائر الحمل بدأت سلسلة من الضغوط من أهلي فهو قد سبق له الإنجاب ، ولأنه سبق ونال الولد فلم يكن يهمه إن أنجبت أم لا كفى عليه ما أعطيه إياه في الفراش حتى يظل تابعا لي أسيرا ، لم يصمتوا

كلهم إلا حين أخبرنا الطبيب بعدم قدرتي على الإنجاب وأني عاقرا أعاني عقما دائما .

في تلك اللحظة أحسست شعورا بأني كمن وقف على سطح عال وسقط مرة واحدة ليرتطم بالأرض في أسوأ عناق يعرفه بشر .

ترقرق الدمع في عيني ، ولم ينحدر ، بكت أمي كثيرا ، واحتضنتني ، باتت زينب كمن فقدت عزيز ، سمع أبي بالخبر صمت في حزن أمرضه .

في تلك اللحظة بكيت فهم يحبونني ، وأنا أكرههم ، هم يرون أن فيما يفعلونه مصلحتي ، لكني لم أر ذلك فكرهتهم ، ولا أستطيع أن أمحو كرههم من قلبي .

حين علم زوجي قال : أنا لا أريد أطفالا يشغلوكي عني ويضيعوا جمالك .

- كل واحدة تتمنى تبقى أم .

لحظتها عانقني عناقا دافئا لم أحسه معه من قبل ، عناقا خالي من الشهوة مليء بالحنان قبَّل رأسي وقال : أنا ابنك وأنتِ أمي، ترضي يا أمة .

أحكمت يدي حوله وكأني لا أريد تركه ، لا أريد لهذا الحنان أن يمضي دون أن أغتنمه كاملا .

كادت تفشل كل خططي في هذا اليوم الذي تسرب الضعف فيه إلى نفسي فأوشكت على التراجع عما بدأت ، وخاصة تجاهه هو ، فقد احتوى ألمي بصورة لم أتخيلها ، ولم أتصور أنَّ نصابا مثله يملك تلك المشاعر التي جعلتني أقضي معه يوما لم أر له مثيلا حتى ....

كان يوما لا يسنى طُبع في ذاكرتي ، بل نقش بعناية ، ودقة متناهية .

أحسكم تسألوني مالذي منعك من إقامة حائلا بينك ، وبين المقت ، والبغض الذي ملأ نفسك فتحجمينه بعد أن رأيتِ حبهم جميعا ؟

لا تسألوا الشيطان لماذا يقوم بعمله ، وقد أقسم لله بعزته وجلاله ليغوي بني أدم أجمعين إلا من تاب منهم فهو ليس عليه سلطان عليه ، وأنا شقية بنفسي التي هي شيطاني الذي تسلط عليَّ ، ووسوس لي حتى صار صوته أعلى من أي صوت آخر.

كلما لان قلبي كلما شعرت به يذكرني بما أريد دائما نسيانه، حتى إن تذكرت حب زوجي وحنانه أحيانا أرى أمامي أنهم زوجوني رغما عني لنصاب ، وأن حبه ما هو إلا شبق عارم ، وهوى لجسدي ليس إلا فلو لم أقدم له تلك الوجبة الشهية بنفس القوة متى يريدها لألقى بي في أول

منعطف، وليس ببعيد أن يبيعني طالما وجد من يدفع ثمنا لبضاعته الخاسرة فأي ثمن فيها سيعد مكسبا .

أنا لست بسيئة هم من جعلوني هكذا وعليهم جميعا دفع الثمن، وأولهم النصاب تاجر المخدرات الذي تزوجته، وأعيش معه وآكل من ماله الحرام الذي إن أعلنت للجميع عن طبيعة عمله ، وطلبت الطلاق لن يصدقوني فكيف للمبر المصلي الذي يحترمه كل أهل قريته أن يكون نصاب ؟ من سيصدقني ؟

(٥)

دائما ما أؤمن أنّ الطعام المطهي على نار هادئة هو أشهى وألذ ، لذا فمخططي كنت أسويه على نار هادئة جدا، لا أتعجل شيئا ولا أفعل فعلا بلا تفكير أورروية كنت أسير الهويني بلا عجل .

منذ وطأت قدمي قرية زوجي حرصت على معرفة نساء القرية اللاتي كعادة أغلب النساء يحببن الثرثرة ، وكنت أسمع لهن جيدا ، وأمازحهن فنلت محبتهن .

وإن كنت قد لمحت في عيون بعضهن غيرة على رجالهن مني، ومن جمالي فلم أعطهن الفرصة ليتوغل شعور الغيرة بداخلهن فكنت سرعان ما ألهيهن بالحديث ، ولم أكن أتعمد أبدا الذهاب لإحداهن وزوجها في الدار .

علمت من خلال محادثاتي معهن أن بعضهن على علم بسير زوجي المعوج إلا أنهن لا يصدقن ذلك وكذلك أزواجهن فالرجل تقيٌ ، ومحب للجميع فكنت أظهر دائما الجهل ، وعدم معرفتي بأي شيء يخص عمل زوجي .

وفي غمرة كلامنا ألعن الزواج ، وأبدي كرهي له لتهيئة ما عزمت عليه ، وليعرف الجميع أني وزوجي لسنا على وفاق ، وبطريقة لا تجعلهن يظنوني أخاف الحسد فأذكر عكس الواقع ساعدني على ذلك أنه كان مطلقا .

ذات يوم أتى زوجي للبيت مضطربا ، نظراته زائغة ، كلماته متعثرة مبعثرة ، عصبي حتى أنه دفعني فارتطمت بدولاب الملابس .

وكلما سألته عما به سكت ، ولم ينطق أو يشيح بيده علامة الصمت ، ثم خرج ، وعاد في المساء ، وهو أكثر اضطرابا ، إلا أنني استطعت أن استنطقه ، دفعته للحديث فقال: أنه قام بعملية بيع أرض كان قد اشتراها من بعض الملاك في محافظة البحيرة ثم حدثت مشاكل في البيع .

- حدثت مشاكل لأنك بعت أرض لا تملكها .

- نعم ؟!!

- بعت أرض لا تملكها واكتشف المشترون ذلك صح ولا لأ ؟

- عرفتي منين ؟

- مش عايزة نباهة ، إيه اللي يخليك تروح تشتري أرض في محافظة بعيدة إلا إذا كنت عايز تبيع لحد ما يعرفكش أغراب لا يعرفونك ، ولا يعرفوا أصحاب الأرض اللي بالطبع إنت ما اشتريتهاش .

- إنتي مخك دا إيه ؟

- مهوش فردة جزمة ، عيبه إنه بيشتغل .

- مش عارف أعمل إيه .

- البوليس وراك ، والفلوس كتير .

- آه .

- لازم تختفي من هنا وتروح أبعد مكان .

- إزاي دا ؟

- البوليس أكيد هيوصلك طالت المدة ، ولا قصرت ، عشان كده لازم نهيأ موضوع اختفاءك .

- إزاي ؟

- سيبني أفكر شوية .

- فكري بس بسرعة .

ساد صمت بيننا استغللته في التفكير فالأمر جاءني فجأة ، وكان لزاما عليّ أن أنتهز الفرصة ، لقد كنت أسير على مهل فماذا يضير لو سرت بسرعة فقد رسم لي القدر الطريق ، ووضع في طريقي جسرا لأختصر الوقت لم لا أمر عليه .

لن أبلغ البوليس بالطبع لن أكون خائنة ، لابد وأن أكون وديعة للنهاية بدون إثارة الشك في نفسه أو نفس أي مخلوق .

قطع جمال الصمت قائلا : إيه ؟ فكرتي ؟

- اصبر شوية ، الصبر طيب .

بعد مدة قصيرة قلت له : عايزاك تسافر يومين وترجع بس بعد ما نتخانق معايا خناقة كبير يسمع بيها كل الناس حوالينا .

- ليه ؟

- عشان يعرفوا إنك مش مبسوط معايا لدرجة إنك بتطفش ، وتسيب البيت ، يبقى لما ييجي وقت وتختفي محدش يقول اختفى ليه فجأة وراه إيه ؟

- طيب ما نقول إني مسافر وخلاص حد له عندنا حاجة .

- هنقول مسافر الخليج مثلا ، هتعمل إيه هناك ، وكمان هيطلع لينا حد يقول والنبي شيعي مع جوزك الجواب دا لابني ، ولا حد يجي من هناك ويقول هدور عليه وأشوفه ، إحنا عايزين اختفاءك يبقى عني أنا كمان ، وكأني معرفش شيء ، يقوم لما البوليس يجي هنا ويوصل بيان إني معرفش فعلا أي حاجة ، دا يعني لو وصل .

- طيب إزاي هبعد عنك ، أنا مقدرش .

- خلاص خليك جنبي لحد ما تدخل السجن .

- لا أنا مقدرش عليه أبدا .

- خلاص يبقى تنفذ اللي بقولك عليه .

- طيب هنتخانق على إيه ؟

- أي حاجة المهم صوتك يعلى وتزعق ويعرفوا إنك ضربتني ، بعدها تقول والنبي ما أنا قاعد لك في الدار ، قرفتيني وزهقتيني .

نفذ جمال ما طلبته منه ، وسمع الناس صراخي المزعوم ، لم أظهر في البلدة ، لكنه خرج أمام الجميع في وضح النهار ، ومعه حقيبته يحمل بها بعض ملابس .

في اليوم التالي خرجت إلى السوق ابتعت بعض لوازمي ، وفي الطريق كلمتني بعض النسوة عن شجار أول أمس فقلت وقد كسا الحزن وجهي : البيوت ما بتخلاش .

قلتها وصمت، أغلقت عليهن طريق الثرثرة بهاتين الكلمتين، والحزن الذي اتقنت تمثيله ، تركت خيالهن يعبث بهن كيفما شاء ، لتتصور أي منهن أن هناك امرأة أخرى السبب ، أو مسألة الانجاب ، أي شيء ، تركتهن في حيرة ومضيت إلى داري ، و لم أنس المرور على زينب والشكوى كعادتي منه .

عاد بعد بضعة أيام وقد هده الخوف ، والتفكير ، والخوف من أن يكون قد توصل له البوليس ، من الفضيحة التي ستلحق

به وبعياله ، والشوق حتى إنه حين رآني قال : لأ ، شوفي صرفة تانية غير السفر دا ، يا إما تيجي معايا .

- إنا مش عارفة إنت بترتب شغلك إزاي ؟

- قصدك إيه ؟

- اللي إنت بتعمله عاوز صبر عشان يطلع كويس ومظبوط ، والطبخة تدخل على اللي عاوز تنصب عليهم ، فين صبرك دا بأة ؟

- أنا أصبر على أي حاجة إلا إنتي ، إنتي عملتي فيا إيه دا أنا كنت حاسس إني قبلك كنت عطشان وإنتي بس اللي عرفتي ترويني .

- يا سلام !!!

- أنا مر عليّ نسوان بعدد شعر راسي مافيهمش واحدة زيك ، إزاي أسيبك بعد مالاقيتك .

- السجن برضه هايخدك مني .

- خلاص أنا هروح أرد الفلوس لأصحابها ويا دار ما دخلك شر .

قلت في برود مصطنع رغم أن فعله ذلك سيضر بمخططي وسأعود للبداية : روح ، هو أنا هقولك لأ ، أنا برضه ما

يرضنيش إن جوزي يبقى نصاب ، بس إنت بتحب الفلوس ومش هيهون عليك ترجعها ، شوف حل تاني .

- أعمل إيه يا ربي ؟ أعمل إيه ؟

- نفذ اللي اتفقنا عليه .

- والنبي دا حرام .

- الحرام اللي إنت عملته ، هو في حاجة بتعدي كده .

- عندك حق .

أعددت العشاء ، أكل وشرب الشاي وكذلك علبة سجائر كاملة ، وأنا أرقبه في صمت قطعته قائلة : فيك إيه ؟ بتفكر في إيه ؟

- في حالي ، أنا ما كنتش كده ، أنا ابن ناس ، وليا عزوة وأهل ، بس تقولي إيه لصاحب السوء ، هو اللي جرني للسكة دي ، جريت في دمي وخاصة إني فعلا بحب الفلوس بحبها قوي وبصرفها كما كويس قوي .

- لكل غلط تمن . وكل تمن على أد الغلط اللي بنعمله . المهم إزاي نقدر ندفعه .

عانقني بقوة أوجعتني وهو يقول : أمال ليه أنا حاسس إنك المكافأة اللي ربنا إدهالي ، بس مش عارف ليه .

ضحكت وقلت في نفسي : لا وإنت الصادق دا أنا المصيبة الي هتحط عليك بس إنت مش عارف .

قال وهو يغمرني بقبلاته المحمومة : رحتي فين ؟ ساكتة ليه ؟

- أبدا مفيش .

استسلمت له باذلة أقصى ما في وسعي لإتقان الدور الذي أمثله حتى النهاية .

مرت أيام قبل أن أذكره بأنه لابد من حدوث المشاجرة الثانية ، لم يكن يريد فراقي ، لقد أحبني وأعلم تماما ما يجول برأسه ، وأعلم أيضا أن الطيور تهوى الحرية ، وتعشق الانتقال، هكذا كان ، لذا فقد كنت أعرف الوتر الواجب عليّ العزف عليه ، وهو حريته ، والسجن الذي سوف يأخذها بعيدا لسنوات لا يعلم عددها .

مضى تاركا الدار ، تركني وهو يلمح الدموع في عيني ، دموع الفراق ، وما إن أدار ظهره وأغلق الباب حتى رسمت ابتسامة على وجهي ثم علت ضحكتي شيئا فشيئا ، وشدوت بأغنية يا أبو ضحكة جنان ولكن ضحكتي لم يكن لها أي من الحنان ، كانت ضحكة شيطانية ، ضحكة نصر .

(٦)

كلما نزل عبده في إجازة كنت أحرص أن يراني حزينة أملأ عيني بعلامات القهر ، والألم ويضحك وجهي فيبدو كما لو أنني أضحك مجاملة ، ولكم كنت أستعذب نظرات الاشفاق في عينيه ، وحنانه الذي يغدقه حينها عليّ ، وحثي على الصبر ، واحتمال أذى الناس ، وزوجي لي بالكلام لعقمي .

حقا لا أعرف لماذا كنت أعذب عبده معي فهو ليس مثلهم، فهو يراني ملاكا ، لكنه الكره الذي نبتت بذوره بقلبي، وتفرعت ، وورفت شجرته لم يعد يفرق بين أحد ، صار موجه للجميع .

لم أنس اليوم الذي كنت أجلس فيه مع نساء القرية من الجيران أمام الدار يوم قدم إلي عبده بحلته العسكرية ، مرَّ عليّ ليراني قبل سفره ، لحظة سمعته يناديني جريت نحوه ، وألقيت بنفسي بين يديه ، كنت في شوق إليه ، لحظتها نسيت كل شيء ، لم أذكر غير فرحتي بلقائه .

في كثير من الأحيان كنت أجلس لأخطط لأشياء إلا أنها لا تمسه هو ، ولا تضره ، كنت أتناسى الكثير لحظة لقائي به إلا لحزن الذي من كثرة ما رسمته على وجهي صار جزءا منه فكان يتعذب به .

أعطيته يومها المسرودة التي يحبها قبل أن يتركني ، ويسافر .

قال لي ذات يوم ألا أترك أحد يهينني ، أو يؤثر فيّ بكلماته الجارحة لأنني عقيم ، فكلما ضمرت له حقدا ، أجدني أتراجع فهو الوحيد الذي يخاف علي ، كم كنت ألوم نفسي ، وأعذبها لأني أخشى عليه أن يكون فريسة لها ، ولنيرانها الحارقة .

مضت خطتي سلسة بين عودة جمال ، واختفائه ، ومشاجراته التي يسمع بها أهل القرية ، ويتحدثون فيما سمعوه في الصباح التالي ، وكذا شكواي لأختي التي تنقل كل شيء لأبي وأمي اللذان يواصلان صمتهما الغريب والعجيب .

وواجهتني أسئلة مزقتني فما من شيء يفعلانه ، أما من وقفة يقفانها تجاه صغيرتهما التي ألقيا بها في هذا العذاب ؟ ألا يتحققان ؟ ألا يخففان عني ما ألاقي ولو حتى بكلمات ؟

أسئلة بلا إجابات تشعل ناري أكثر ، وأكثر ، وتؤجج مقتي لهم جميعا بصورة كادت تلتهمني أنا نفسي ، صمتهما يدميني .

عاد جمال بعد آخر شجار كعادته محملا بشوق جارف ملتهب يزيد في كل مرة عن طاقتي .

ذات صباح خرج للسوق لشراء جاموسة جديدة ، وقد صاحبه الاطمئنان لأن البوليس لم يعثر عليه طوال كل المدة الماضية ، لكنه عاد بعد ساعات قليلة وشرر الغضب يتطاير من

عينيه حتى أنني خفته ، وتسرب إلى نفس خوف كبير منه ، تشاغلت عنه بإطعام الطيور .

ناداني وما إن اقتربت منه حتى فاجأتني صفعة قوية على وجهي كدت أسقط معها أرضا وهو يقول : متهيألي كده يبقى بحق وحقيق ؟ صح ؟

لم أصدق ما يحدث انعقد لساني فواصل قوله : صح ولا لأ؟ ردي عليّ .

دفعني بعيدا وأردف قائلا : اتفقنا إن أهل بلدنا هنا هما اللي يعرفوا إني بضربك ، وإني بمشي عشان أفسر احتفائي بعد كده ، لكن مش أهلك في بلدكم اللي يعرفوا إني بخيل ، ومش بأكلك ، وحارمك من كل حاجة ، لأ وإيه معذبك ، وإن حياتك معايا كلها عذاب في عذاب .

أهلك اللي قلنا هنقولهم إن ابن عمي اللي في السعودية بعت لي عقد اشتغل معاه في شركة البترول وسافرت له مش كده ، مش دا كان اتفاقنا ؟ قلت لأهلك كده ليه .

سمعته ، لم أنطق فلقد هدم كل شيء بنيته دفعة واحدة ، كل ما خططت له ضاع في غمضة عين وانتباهها ، صعد الدم لرأسي ، شُل تفكيري ، ألجمني الذهول فلم أشعر إلا بضرباته التي تنهال على جسدي ، وهو يواصل أسئلته فأنا لا أعرف بماذا أجيبه ؟

كل ما نطقت به هو : مين قالك ؟ مين قالك ؟

بكيت ليس من ألم جسدي ، ولكن من ألم نفسي التي فشل كل ما كانت تصبو إليه ، وكان يواصل طريقه للتحقق دون أي مشقة .

أمسكني من كتفي وظل يهزني بشدة وهو يقول : ليه ؟ ليه ؟ دا أنا عمري ما حسيت بحد قد ما حسيت بقربك ليا ، عمري ما اديت سري لحد غيرك ، حتى أصحابي ، بشتغل لوحدي من غير أي مخلوق عشان محدش يعرف عني حاجة ، إنتي بس اللي أمنتك على سري ليه يا مسرودة ؟

سقطت من يديه على الأرض فدفعني بقدمه ، وواصل ضربي بخيزرانه التي لم تكن تفارق يده .

واصل كلامه : كنت عايش على غمايا لولا جوز أختك بيعاتبني ، ويقولي إزاي تعمل كده في بنت الأصول ؟ إتبليت معرفتش أقوله إيه أرد أقول إيه ، ما كنتش عارف إن بنت الصول كانت بتلعب بيا الكورة .

ظل يضربني حتى كلت يده ثم لملم حاجياته ، وأخذ ملابسه، وهرب ، وكانت تلك المرة قبل الأخير التي ألقاه فيها.

مضت بي فترة غير متوازنة أحاول لململة ما حدث ، تجمعت كل الأحداث أمام عيناي ، وأنا أحاول جاهدة ربطها ببعض ، كان علي أن أعرف ماذا أفعل ؟ وما يجب عليّ أن أفعل .

قمت إلى حجرتي فوجدته أخذ كل ما يخصه ، فعلمت أنه لا ينوي العودة ، فهو لم يعد يأمني ، فقد كل ثقته بي ولن أستردها مهما حدث ، هروبه بهذه السرعة كان دليلا على خوفه مني لما قد أقوم به من أي رد فعل انتقامي نكاية فيه بعد ضربه لي .

جلست أفكر متغلبة على آلامي كان عليّ نظم أفكاري ، خرجت بعد وقت طويل من التفكير بأني يجب أن أبلغ الشرطة التي ستأتي وتهاجم البيت ، وستصل أخبار هجومها إليه فلا يعود ، وأظل أنا على موقفي البريئة المظلومة ، وأثار الضرب على جسدي ستدعم موقفي تماما أمام كل الناس ، وأهلي خاصة الذين ما كانوا ليرضوا بأي انفصال بيني وبينه لمجرد أنه عنيف معي ، لكن حين يكون مطاردا من الشرطة سيكون هذا سببا قويا لأنفصل عنه .

لقد خدمني زوج أختي ولم يضر بي ، إن الأحداث جميعها في النهاية تسير نحو تحقيق هدفي .

في مساء هذا اليوم خرجت خفية وقد ارتديت ما أداري به ملامحي ، ذهبت إلى المركز ألقيت بخطاب في صندوق البريد موجه للشرطة ، أخبرهم بأن النصاب الذي تبحث عنه مديرية أمن البحيرة هو جمال زوجي ووصفت لهم عنوان داري .

عدت لمترلي لأبيت ليلتي ، ومع مشرق الشمس أطعمت الطيور ، وأغلقت الدار متوجهة لبيت زينب أبثها شكواي ،

وأبكي مر البكاء ، في تلك اللحظة التي فتح علينا الباب وأنا اكشف لها جسدي لترى ما فعله جمال ، فإذا بعبده هو من فتح الباب ورأى بعينيه ، وانطلق غاضبا ، ليعود خائبا في صحبة زينهم الذي رأى هو الآخر نتيجة اختياره ، وأتقنت دوري بمزيد من الكلام الموجع ، وأنا أرقبهم يتألمون ويحزنون بينما صدري نشوان فرح .

في اليوم التالي عدت لداري لأجد الشرطة تداهم الدار ، وتكيل لي سيلا من الأسئلة موجهة لي اتهامات عدة ، رددت على جميعها ، لم يتمكنوا من إثبات شيء ضدي ، خرجت من الأمر دون أية مصاعب ولكني ضمنت أنّ جمال لن يقترب من البيت مرة أخرى .

صممت على الحياة في داري ، خرجت لزراعة الأرض لضمان حق طفلي جمال في الحياة بعد رحيله دون أي عائد ، أو مورد لهما ، ولأمهما التي لا تملك من الدنيا سوى البيت الذي تعيش فيه ، وفدانين ورثتهما عن والديها .

اعترضني أهل زوجي ، بعض من أبناء أعمامه فلقد كان جمال وحيدا دون أخوة ، تصديت لهم ووقف عبده مكشرا عن أنيابه مهددا فلم يقف في طريقي أي منهم بعد ذلك .

اعتنيت بالأرض وأجرت أنفارا لزراعتها ، رعيت الماشية ، لم أحرم أولاد جمال أي شيء فهما ، وأمهما لم يسيئوا إليّ في

أي يوم ، كما أن الولدين لم تصدر منهما أية مضايقات لي حين كان يأتيان والدهما زائران .

بدأت أحس حينها بأني حرة ، وتمكنت من تحجيم مشاعر الكره حتى أتمكن من العيش حسبما أريد ، لكني لم أهنأ بتلك الحرية ، فلقد مات أبي محزونا عليّ بعد أن علم باقتياد الشرطة لي وتحقيقها معي ، مات كمدا وبكيته طويلا ، وواصلت البكاء فقد تبعته أمي بعد أقل من شهر .

حزنت لموتهما بشدة رغم كل شيء ، كان شهرا من أحلك ما مر علي من شهور ، واكتملت المأساة بعد رحيل زوجي الذي تبحث عنه الشرطة ، شعرت بكوني في دائرة تضيق من حولي شيئا فشيئا .

أردت حريتي منذ البداية ، وبدأت أنسج الطريق إليها وطاوعني الخيط ليكتمل العمل ، ساعدتني الظروف وتوفرت كل الألوان والخيوط حتى وفاة أبي وأمي ضمنت به نتيجة عملي ونجاحه وحصولي المؤكد على تلك الحرية المنشودة ولكنها جاءتني منقوصة مطعمة بألم وجرح الفراق ، فبرغم ما كننته لهما في داخلي إلا أن فراقهما كان وعرا ، كما أن الطريقة التي تركني بها جمال لم تكن هينة ، ولم تكن كما رسمتها بخيالي .

(٧)

التفت إلى نفسي ، وإلى أفكاري التي أوحت لي بها الفلاحات اللاتي كنت أبيعهن اللبن ، والجبن ، فقد أخبرنني أن نساء المدينة في طنطا على الخصوص يعملن طوال الأسبوع ، وصار يوم أجازتهن للتنظيف ، والغسيل ، والأعمال المنزلية العديدة ، ولم تعد أي واحدة منهن متفرغة لصنع الأكلات الريفية المشهورة ، التي يحن لها أزواجهن ، وهن على السواء ، ينقصهن الوقت ، وارتبطت تلك الأكلات فقط بمجيء العيد ، وبعض المواسم أو بنزولهن قراهن ، كما أنهن صرن في شوق إليها على سبيل التغيير بعيدا عن الأرز ، والمكرونة ، والخبز كل يوم .

الجميع في شوق للفطير،والكسكسي،والمسرودة، والمخروطة، وكل ما نصنعه هنا ، حتى الخبز الناشف والبتاو .

بدأت رأسي تعمل ، فكرت كثيرا واهتديت أخيراً ، فما ضير أن نصنع هنا ما يردن هناك ، ونبيعه لهن ، كبرت الفكرة برأسي ، أخبرت بائعات اللبن أن يسألن موظفات المدينة إن كانت لهن رغبة للشراء أم لا ؟

لم أصدق نفسي حين أتينني بالموافقة الجماعية ، والترحيب .

بدأ المشوار، كنت أصنع الأكلات بمفردي،وبكميات قليلة، وحسب الطلب، لكني بدأت أفاجأ بزيادة الطلبات ، فمن أكل حكى، ومن سمع طلب ، فصارت لدي طلبات من أكل ، ومن سمع .

كان من المستحيل أن أواصل العمل وحدي ، انتقيت بعض الفتيات ليساعدنني .

ولا أخفي كانت تلك المرة الأولى التي أشعر فيها بالرضا عن حياتي ، وعن وجودي فيها ، إلا أنّ الخوف كل ليلة من مقدم جمال في أية لحظة كان يؤرقني ، لم يكن بوسعي تخيل من أين ستأتيني ضربته ، لقد خنته ، ووشيت به وهو يهواني ، ما أصعب انتقام محب من حبيب خائن .

أسهر كل ليلة أنتظر ، وأنتظر ، وكلما حاولت النوم أجد الشوك في مرقدي ، لا جدوى أبدا فأبقى مستيقظة .

ذات ليلة سمعت حركة غريبة في الدار أفزعتني ، خرجت أتلمس في الظلام طريقي على ضوء لمبة كيروسين صغيرة، بمجرد خروجي اصطدمت بالمتسلل كان أمامي مباشرة ، كان هو، جاء متخفيا مستترا بالظلام، تملكني الخوف،شلتني المفاجأة التي كنت أنتظرها ، شعرت بأن بي رغبة في أن تبتلعني الأرض، ستكون أرحم بي مما سيحدث لي على يديه .

لم أنطق ، أكلتني نظراته دون كلمة ، لا أعرف كم مضى علينا في صمتنا هذا ؟

لكني شعرت بلوم عينيه ، وعتابها لي بحب رغم كل شيء ، يملأهما الشوق ، أحسسته يغفر لي ، لكن هل يعلم أني من أبلغت عنه ؟

هل يدرك أني من أضعت حياته ، وفتشت سره ، وأني من يجره للسجن جرا ؟

قطع صمتنا ، وحبل تساؤلاتي بجذبي إليه وضمي له بشدة ، علمت أني لازلت أملكه ، وأنّ ما أعطيه لم يلمسه مع غيري ، أدركت أنه سيغفر لي ليطفئ جذوة شوقه وشهوته ، لم أتمنع عليه في البداية ، تركته يظنني استسلمت له ، أو أني خائفة منه فرضخت له .

في الوقت الذي همّ فيه بمطارحتي غرامه ، انفلت من بين يديه ، وقفت بعيدا دون كلمة ، لم ينطق أي منا بكلمة طوال ذلك الوقت .

قدم نحوي حاول جذبي ثانية، لكني انفلت مرة أخرى بدلال مصطنع وابتسامة باهتة ، التفت إليّ وقال: ما بحبش الاستغماية هو إنتي ما بتزهقيش منها .

قلت وقد زدت جرعة الدلال : الاستغماية لعبة وأنا بحب اللعب .

- ليه يا مسرودة ؟

- ليه إيه ؟

- ما تلفيش وتدوري عليا ، أنا خلاص فقت لنفسي .

- تفتكر ؟!!!

- عشان اللي حصل دلوقت ؟!

صمت ولم أرد فتابع قائلا : أنا بس بفتح معاكي كلام باللغة اللي تفهميها .

قلت دون أن أظهر غضبي : لغتي أنا ؟!! وإنت مش دي لغتك المفضلة ، متعتك ؟

- مش هنلف وندور على بعض ، عملتي كده ليه ؟ عاوزة تبعديني عنك مش كده ؟ طب اتجوزتيني ليه ؟

- اسأل روحك .

- غصبوا عليكي، شربتي الشربة، طب مالقيتهاش في جوفك حلوة ، بلاش حلوة عمر الشربة ما بتبقى حلوة ، مخففتش عنك شوية ، كنت وحش وياكي ؟ ما اترحتليش يوم؟ شفتي مني حاجة وحشة ؟

- الغصب بيفضل طول عمره غصب، وأنا ما بحبش أعمل حاجة غصب عني .

- وحياتك يا مسرودة لعرفك يعني إيه الغصبانية ، وأعلمك يعني إيه جمال ، وأعرفك إزاي تعيشي بعد كده من غير ، ولا كلمة ، ولا نفس .

- مش هتلحق .

- يعني إيه ؟

- يعني خلاص البوليس عرف مكانك ، وفتش الدار ، وبعد ما كانت قضايا نصب بقت مخدرات كمان .

- يا خبر أسود ، ومين عرفهم مكاني ؟

- أمال إنت غبت الشهور دي كلها ليه ؟ إيه ما كنتش تعرف ؟

- أنا سافرت في شغلانة كده ولسة راجع .

صمتنا برهة ثم قال : مين اللي بلغ عني ؟ إنتي طبعا مين يعرف كل حاجة غيرك ؟

- وأنا مالي يا خويا ، أنا قلت لك إن ما وصولوش ليك النهاردة هيوصلوا بكرة .

لم يصدق جمال ما سمع ، فهو كما علمت دقيق جدا في عمله ، يجيد التنكر ومهما فعلوا لن يتعرفوا على وجهه ، يقوم بكل عملياته بعيد عن المحافظة كلها ، كيف وصولوا له ؟

كيف عرفوه ؟ فهو يعمل بمفرده حتى لا يخونه واحدا من رجاله، حتى مزورين الورق لا يعرفونه شخصيا ، إنه متقن لعمله للغاية ، إلا أنه لم يفكر في كل هذا ، لم يتطرق فكره أنه لا يمكن الوصول إليه بكل هذه السهولة .

كل ما شغل باله أنهم عرفوه ، وأنه سيفقد حريته التي هي أهم ما يملك !!

أهون عليه أن يموت ، رغم أنه لو فكر قليلا لعرف أن هناك من بلغ عنه وبالطبع أنا المبلغة زوجته .

فجأة وجدته سقط أمامي في مكانه يتفصد جبينه من العرق، يسيل ويسيل ، أحضرت له كوبا من الماء شربه وهو ينتفض ، تملكه خوف غريب لم أر مثله في حياتي ، لحظتها تملكتني شفقة به ، شفقة لم تصل إلى حد الندم على ما فعلت .

تذكرت فقط يوم أن احتواني عندما علمت بأني عاقر ، ساندني يومها ووقف إلى جواري في لحظة كنت فيها أضعف ما يكون .

وتساءلت في نفسي أهذا هو النصاب الذي تعدو كل أجهزة الأمن خلفه ؟

جعلته يتحامل عليّ حتى وصل لسريره ، دثرته جيدا ، أحضرت له طعاما ، عزف عنه ، لم يأكل كما لم تنم عينيه

لحظة، سطعت الشمس وملأ نورها المكان وهو لازال مستيقظا.

أرسلت للبنات ألا ياتين اليوم للعمل بحجة أني سأخرج لأمر ما ، بقيت معه في البيت ، لا أعرف ماذا أفعل ؟

أتشاغل بأشياء في الدار حتى لا أظل أمامه فتتجسد أمامي نتيجة فعلي ، لكن عقلي متوقف عن التفكير تماما .

أحسه ينهار ، ليس بيدي أي شيء ، ما بين ساعة وأخرى أجد أنفاسه تتلاحق وعرقه يزداد ، وكلما سألته عما به قال : لا شيء .

- هل أحضر لك طبيبا ؟

يرفض رفضا باتا .

في اليوم التالي طلب رؤية طفليه ، أغلقت الدار وذهبت إليهم بنفسي، طلبت من أمهما أن ترسلهما خلفي حتى لا يراني أحد من أهل القرية معهم فيشك في عودة أبيهم .

أمضى اليوم معهما ، بضعة أيام ، وهو على حاله ، وأنا في تعطل فقد توقف عملي نهائيا إلا من بعض أشياء أقوم بها وحدي ، وأسلمها في الصباح كالعادة للبائعات .

توقفي المفاجئ عن العمل سيثير الأسئلة ، وسيبث الشك في النفوس عن وجوده ، وقد تصل الأخبار إلى الشرطة ، وأتهم بأني أتستر عليه .

رأسي ستنفجر من كثرة التفكير حتى بت مشوشة أعجز عن عمل أي شيء ، لم ينقذني من ذلك إلا تماسكه في النهاية ، وقراره بالرحيل .

خرج فتنفست الصعداء .

وعدني بأن يرسل لي ورقة طلاقي ، وكل مستحقاتي لأنه لا يريد أن يكون مدينا لي أنا بالذات بأي شيء .

شهر وأكثر قد مضى قبل أن ترسل لي الشرطة لأتعرف على جثته .

قتل في مشادة لا يعرف أحد سببها ، لم يطلقني ؛ مات وأنا لازلت زوجته .

سقطت تهمة حيازة المخدرات بوفاته ، أما من نصب عليهم، لم يتعرفوا عليه .

قالوا أنّ من قابلهم واتفق معهم ، ومضى العقود معهم رجلا آخر غيره ، كان ممتلئا وملامحه مختلفة تماما .

سمعت كلامهم في صمت ، تعجبت ألهذه الدرجة كان بارعا ؟!!! كيف كان يفعل ذلك ؟!!!

منذ ذلك اليوم تغيرت حياتي ، تبدلت انطلقت دون توقف، لم يقف أمامي أي شيء ، كبر عملي ، نمت ثروتي ، لم يكن يعكر صفو حياتي إلا مجيء أخوتي كل يوم ، وآخر بزوج جديد ، وأنا أردهم جميعا .

كنت أقف كالنمرة الشرسة غارسة مخالبي في أي مخلوق يحاول أن يهدم صرحي الذي بنيته .

كنت سعيدة بما حققته وما زاد سعادتي يوم انتقيت حميدة لعبده الذي فرح بها ظانا منه أنها مثلي ، لم يعلم أني انتقيت له فتاة جميلة نقية من الداخل مثلما هي جميلة من الخارج عكسي تماما .

كلما نظرت إليها كرهت نفسي ، كنت أحسها كمرآتي تظهرني على حقيقتي ، تلك الحقيقة التي كلما تجسدت أمامي كلما كرهت صاحبتها واشمأزت نفسي منها ، يجافيني النوم وأنا أفكر كل ليلة بها ، وبما داخلها من أحقاد ، وضغائن حتى بت أشتهي النوم ، وإن نمت أشتهي نوما بلا كوابيس .

كنت دائما أراني أقتل جمال ، أذبحه بسكين بارد ، وأرى دماءه تسيل ، وعيناه تستحلفني ، يرجوني دمعه ، وأبدا لا ألين ، وأظل أنحره دون رحمة ، يدي تجوس في رقبته كما لو أنها برتقالة ، وأصحو من نومي ، وقد تناثر دمه على وجهي وملابسي .

بت لا أطيق مرأى دجاجة تذبح من كثرة ما ذبحته في أحلامي ، كل يوم أذبحه ، كلما أغمضت عيناي أرى نفس الحلم ، أو أراه يأتيني ضاحكا مادا لي يده برغيف من الخبز آخذه بيد ، وأمد الأخرى لأقطع يده التي أعطتني الخبز .

إحساسي بالذنب كان يميتني ، جمال لم يؤذني ، و لم يكن له ذنب في إجبار أخي لي على الزواج به ، هو رجل راقته امرأة فتقدم لأهلها وهم وافقوا ، ماله وإجباري ؟ لم يكن له ذنب ، أنا التي آذيته ، لكنه نصاب هكذا هتفت نفسي .

- نصاب لكنه لم ينصب عليّ ، مدَّ لي يده بالطيب ، مددت له يدي بالشر .

- هل لديك ضمير ؟

- إنه يعذبني .

- الله عادل لا شيء من دون حساب ، فهو يمهل ولا يهمل .

كنت أعلم أني أُعاقب ، بدلا من أن أكون سكنا لزوجي ، رحيمة به ، قوة تعينه على مجاهدة شر نفسه ، كنت أكثر منه شرا ، وأسوأ منه .

أحقادي تنمو ، غيرتي تتزايد ، وإن كنت أبذل جهدا خرافيا لأخفيها ، وأسيطر عليها ، لا أنكر أني حين علمت بنبأ حمل حميدة عدت للبيت ، وظللت أبكي حتى الصباح رغم

فرحتي التي أظهرتها لها ولعبده كما لو كنت صاحبة الفرح أو أن القادم ولدي وليس ولدها .

كنت سأكون أول من تقبله معاهد التمثيل لو تقدمت لأي منها .

لكني بمجرد أن أغلقت بابي عليّ حتى ألقيت القناع الزائف، عدت لمسرودة التي لا يعرفونها وبكيت .

كل يوم أستقبل صباحا خلف صباح تقتلني الغيرة من أي فتاة من العاملات تأتيني تزف إليّ نبأ خطبتها أو زواجها ممن تحب أو أي امرأة تظهر عليها علامات الحمل ، ولولا انهماكي وانشغالي بالعمل المتزايد لَمُت كمدا ، لكني لم أستسلم لها ، لم أترك غيرتي تثأر مني .

كلما فاتحني عبده أو غيره في مسألة الزواج مرة أخرى كنت أنفجر غاضبة باكية ألهي ببكائي الجميع فينسون ما بدأوا من حديث ، وابتعدوا بسيرة الزواج .

في كثير من الأحيان كنت أجلس وحميدة في المساء نتسامر ونتضاحك فإذا بعيني يطفر دمعها فتظنني أبكي حالي ، إلا أنني كنت أبكي إحساسي الأليم بكره من يحبونني حقا ، كلما حاولت التغلب على مشاعري تجاههم أجد كرهي يغلبني ، ومقتي يسحق أي بارقة أمل في التغير .

(٨)

نجح عملي بشكل فاق كل توقعاتي ، ازداد مالي يوما بعد آخر ، لكني لم أكن أطمح بشيء أكبر مما وصلت إليه ، كان تفكيري منحصر فقط في كيف ألحق بأخوتي الهزيمة ، واسحقهم واحدا بعد آخر ، شغلي الشاغل البحث عن الطريقة التي سوف أهزمهم بها ، إلا أنني كنت أعجز دائما عن الوصول إليها.

جاءتني في أحد الأيام واحدة من البائعات تخبرني برغبة واحدة من السيدات التي تبيعهن طعامي في مقابلتي ، رفضت الذهاب إليها ، طلبت حضورها لي إن كانت تريدني ، لكن السيدة أرسلت خطابا لي تخبرني فيه بأن الأمر هام جدا ، وأنها لا تستطيع القدوم إليّ وتستأذنني بمنتهى الأدب في أن أحضر لديها وألبي دعوتها .

ذهبت إليها واستقبلتني بترحاب كبير وابتسامات بثت فيّ بعض الطمأنينة رغم خوفي من اللقاء .

دعتني للدخول وقد صرفت البائعة التي أوصلتني إليها . جلست إلى السيدة ، انضم إلينا زوجها ، رجل في أواسط الأربعينات أشيب الشعر صاحب ملامح صارمة، لكنه أيضا صاحب عين نهمة متطلعة لغير ما تملك جعلتني أتوجس منه خيفة .

علمت أنّ من يريدني كان الزوج وليس السيدة .

لازلت أتعجب الأمر وأخافه ، لكن ودها الظاهر يطمئنني قليلا رغم عين الرجل التي جاست في بدني كله ، وأرهقتني .

قال : عارفين إنك مستغربة دعوتنا دي .

- بصراحة آه .

- بس إحنا عاوزينك في خير ، وكان قصدنا من اللقاء هنا نكون بعيدين عن أهل القرية اللي أكيد هيفضلوا يسألوا عن سبب الزيارة ، وأنا بحب أشتغل من غير ما حد يعرف عني شيء .

- أنا بيجيلي ناس كتير والناس في بلدنا اتعودت على كده، بس تقصد إيه بإنك بتحب تشتغل محدش يعرف عنك شي ء ؟

- أصلي عايزك تشتغلي معايا .

- أشتغل ؟!! أشتغل إيه ؟

قالت زوجته : إنت عمال تتكلم كده من غير ما تعرفها بنفسك ولا تقولها إحنا مين .

قال : عندك حق ، أنا وجدي عبد السلام صاحب ومدير مطعم الضحى في القاهرة ، هو مطعم صغير صحيح بس هيكبر على إيديكي إن شاء الله ، وكمان عاوز أفتح واحد هنا في طنطا ، ويبقى كل الأكل فيه أكلك إنتي ، ومن صنع

إيديكي ، هنقدم الأكل الفلاحي والشرقي ، طواجن من كل نوع .

قلت : يعني إيه ؟

- تشاركيني بشغلك والمكسب أنا التلتين وإنتي التلت ، هيبقى عليا كل شيء من تجهيزات المطعم ومعداته وإنتي عليكي الأكل .

- أفكر .

- بس بسرعة أرجوكي .

- هحاول .

كان الأمر مغريا جدا، كما أنه يعد نقلة كبيرة لي ، ووجدتني في لحظة أنسى كل شيء وكل الناس وأفكر في المطعم الجديد ، وأرسم له صورة معينة، وفي أثناء سيري جالت عيني ناظرة لكل المطاعم التي قابلتني ، ديكوراها ، حالتها ، زبائنها ، ما تقدمه .

شعرت فجأة بأني قد وجدت ما أبحث عنه .

فكرت أن أعود وأخبر السيد وجدي بموافقتي ، لكني تراجعت خوفا من أن يظنني بحاجة للمال، فكرت فقط في الانتظار لأجعله في حاجة إليّ لا أنا من في حاجة له .

وفي غمرة أفكاري ، وسرحتي وجدت صوتا ينتشلني من كل هذا ، وأنا أهم بركوب السيارة إلى قريتي ، التفت إلى الصوت لأجدني وجها لوجه أمام عبد المحسن صديق صباي وصاحب عبده ، كان عائدا للقرية من طنطا .

سلمت عيه ، جلس إلى جواري ، كنت أعلم بما يدور برأسه ، منذ كنا صغارا وأنا أعلم بهواه ومحبته لي ، و أعرف أنه يتحاشاني قدر المستطاع لإحساسه بدونيته بجواري ، وجوار عبده لفقره الشديد عنا .

كان صامتا لا يتكلم رغم أنّ كل ما يود قوله يقفز بشدة مطلا من وجهه ، كان يبحث عن مبدأ للحديث ، لكنه فشل.

فقلت أنا : إيه كان عندك شغل في طنطا ولا إيه ؟

- أيوة في المديرية ، إنتِ كنتِ في طنطا ليه خير ؟

- كنت نازلة أشتري حبة حاجات ومعجبنيش حاجة رجعت .

لم أتركه يشرد مني فسألته على الفور : إنت عامل إيه ؟

- الحمد لله .

- مبسوط في شغلك في الجمعية ؟

- يعني مش أد كده .

- مش ناوي تكمل نص دينك بأة ، صاحبك بأة عنده عيل والتاني في السكة .

- ودي مين بس اللي ترضى بواحد زيي .

- ليه يا خويا وإنت مالك بأة ؟ دا أي بنت تتمناك .

- تفتكري ؟!!

- شاور إنت بس .

قلت الكلمة في نفس اللحظة التي طرأت لي فكرة جهنمية ، لم تكن قد تبلورت بعد ، لكن كان لابد من تمهيد الطريق لها قبل السير فيها .

وجدته يقول : بس اللي عايزها إيدي مش طايلاها .

قلت بجهل مصطنع : ودي مين بس اللي تعصى عليك يا عبد المحسن ، دا إنت مفيش منك .

- إنتي شايفاني كده بجد .

- إنت بس اللي مش واخد بالك من نفسك .

كنت أستخرج ما حبس داخله ، نظراته المحبة لا تُخطئها امرأة قط ، فأي امرأة تعمل كل حواسها ومداركها حين تلمح

نظرة إعجاب في عينيّ رجل ، وتعرف من يهيم بها دون أن يخبرها أحد ، وأنا أعلم منذ مده طويلة بحبه لي .

كنت أفكر ، وهو صامتا فقطعت صمتنا قائلة : إيه ساكت ليه ؟

- أبدا بفكر في كلامك .

- ماله كلامي مش مصدق ليه ؟

- تتجوزيني يا مسرودة ؟

نطق بما توقعت وما أردت سماعه بقى عليّ أن أسحبه إلى عقر داري ، ولكن لأن الفكرة لم تكن قد اكتملت كان علي أن أتدلل وآخذ وقتا للتفكير فقلت : فاجأتني ..... أنا ..... عاوز تتجوزني أنا ؟

- حلم عمري يا مسرودة .

- بس أنا محتاجة أفكر شوية .

- فكري وأنا هقبل بأي حاجة حتى لو رفضتيني .

- بس على شرط محدش يعرف أي حاجة عن طلبك دا لحد ما آخد قراري وأبلغك حتى عبده .

- ليه ؟

- في وقتها أقولك .

- ما تغيبيش عليا يا مسرودة ، أنا كنت صابر وساكت وراضي ،أما دلوقت إنتي بإيديكي حياتي .

أومأت رأسي موافقة وأنا أحاول جمع شتات عقلي وترتيب أفكاري ، ماذا أريد منه بالضبط ؟ ولماذا هو ؟

- طيب هعرف رأيك إمتى ؟

- أنا هبلغك بنفسي .

- فين وإزاي ؟

- سيبها على الله .

انطلقت إلى بيتي وأنا لا أعرف ماذا فعلت ؟ وكيف تصادف الأمرين ؟ لقد وضعت نفسي في مأزق غريب ، كيف لم أفكر جيدا قبل اتخاذ أي قرار ؟

لكنه القدر ساقه إليّ وساقني إليه في ذات الوقت الذي تفتح فيه أبواب الحياة لي .

لكن يجب أن يكون الأمر بعيدا عنهم جميعا حتى عبده ، سأتزوجه حماية لي من المجتمع الجديد الذي سأدخله ، عبد المحسن رجل طيب جدا ، منذ صغره يسهل التحكم به ، يهواني منذ سنين ، وكان فاقد الأمل في تحقيق حلمه الذي هو أنا .

الأستاذ وجدي من الواضح أنه رجل محنك ، خبراته بالحياة كبيرة ، عيونه طمعت بي منذ الوهلة الأولى ، كوني أرملة قد يجعله يطمع أكثر ويريد ما ليس له وما لا يستحق ، لابد وأن أصبح قلعة حصينة .

لكن لماذا في السر ؟ لماذا لا أخبر أسرتي وأعلن أن هذا من أردته ؟

وعدت أتساءل وهل هو من تريدين ؟ هل هذا هو الرجل الذي سوف ترتبطين به بعد جمال صاحب الأرض والمال ؟

غُصبت على رجل والآن حين حق لك الاختيار تختارين ملاحظ آلات بجمعية زراعية لا يملك من حطام الدنيا غير ملابسه !!

أنا أملك الكثير وسوف يكثر مالي بعملي الجديد، إنّ الطريق مفتوحا أمامي بشكل لا أتخيله فاق كل تصوراتي ، لكن عبد المحسن شيء خارج نطاق الصورة لا يتضمنه إطار الصورة.

لكن لكي أواجه وجدي عبد السلام يجب أن يكون إلى جواري رجل ، رجل أطوعه لا يطوعني ، ينفذ ما أطلبه لا أكون جاريته ، رجل أتخلى عنه وقتما أريد لا وقتما يريد هو .

مضت بضع أيام قبل أن أعرج إلى بيت عبده وقد لمحت عبد المحسن في طريقه إليه من شباك منزلي ، تبعته ، وصلت بعده بدقائق ، ألقيت التحية عليه وابن أختي ثم دخلت إلى حميدة وفي طريقي لداخل الدار ألقيت نظرة ذات معنى له اعتقدت أنه فهمها وبعد وقت قليل خرجت لأشرب بعد أن لمحت عبده في طريقه إلى الحمام .

اقتربت منه وطلبت أن يلاقيني في طنطا الساعة العاشرة من صباح الغد .

في الصباح تهيأت للقائه ، ركبت وهو السيارة من المركز لطنطا ، سرنا معا ، تحدثنا كثيرا ، أبلغته بموافقتي بشرط سرية الأمر .

- ليه ؟

- لو رحت لأخواتي مش هيوافقوا مهما جرى ، إنت ما تعرفهمش زي ما أنا أعرفهم ، هما عايزين المال والعيلة ، مش هيفهموا إنك بتحبني وأنا كمان .

ألقيت بالكلمة الصاروخ وأنا أعرف المفعول مسبقا فما كان منه ألا أن انشرح وقال : إنتي كمان بجد يا مسرودة ؟!!

- إلا بجد .

ابتسمت في خجل ولم أكمل حديثي فقال : أنا عشانك أعمل أي شيء .

- بس الموضوع عايز ترتيب .

- اللي تقولي عليه هعمله .

- الأول تمهد لعبده ، للناس إنك هتسيب البلد .

- ليه وهروح فين ؟

- عشان احنا هنتجوز هنا في طنطا مش في البلد ، ولازم تنقل شغلك كمان .

- بس الموال دا عايز وقت .

- صبرنا كتير .

- أنا من بكرة هقدم على طلب نقل وأدور على شقة هنا أأجرها ، بس ......

- بس إيه ؟

- أنا مش معايا أفرش لك شقة باللي يليق بيكي وأجيب لك شبكة كويسة .

- الحاجات دي ما تفرقش معايا وما تقلقش من الفلوس .

- لأ ، أنا راحل وما أعيش أبدا على فلوس مراتي مهما حصل .

- وهو في فرق بين الراجل ومراته وبين الحبيب وحبيبته ؟

كنت أضغط على الكلمات وأنطقها وقد حملتها سحري الأنثوي الذي كنت أمارسه مع جمال فالتهبت مشاعره وضاع عقله ، اختفت رزانته ، سال بين يدي كما الماء بين أصابعي ، خططنا لكل شيء وكذلك للقاءاتنا التي سوف تتعدد للاتفاق ، ولمتابعة قرارنا هذا .

تركته وانصرفت حتى لا يراني أحد عائدة معه فيشك في الأمر، ولأن ورائي أمرا هاما وجب عليّ أن أقضيه .

كنت بطريقي لوجدي عبد السلام صاحب المطعم أبلغه بموافقتي الصريحة وأمضي عقد الشراكة .

(٩)

غاب عبد المحسن عن البلدة يومان ثم عاد ليخبر عبده وعوض بأن هيامه بالبلطية أخت زميلهم بالجيش قد أطار عقله وأنه وجب عليه الارتباط بها ولأن لا شيء يربطه بهذه البلدة فلقد تقدم بطلب نقل وسوف يذهب إلى عروسه بالإسكندرية.

عزَّ على عبده وعوض فراق صديقهما ولكنهما فرحا لأجله.

أخيرا تمت الموافقة على طلب النقل ، سافر عبد المحسن بعد وداع صديقيه ، ووعد بأن يدعوهما على الفرح ، وعد لم يلبه أبدا .

انتقل عبد المحسن إلى مديرية الزراعة بطنطا وقام باستئجار شقة في شارع عمر ابن عبد العزيز المجاور للمديرية ، فرشتها بأثاث مدني غير ما نؤثث به بيوتنا في الريف .

تزوجنا وقد كنت أقضي معه فترة ما بعد الظهر بعد عودته من العمل ، وأبيت في بيتي في البلد حتى لا يشعر أحد ، وإن كان ذلك يتعب عبد المحسن ولكنه تحمل فكوني معه بعض الوقت أفضل بكثير من كوني بعيدة كل الوقت .

لكنه فوجئ بي أصطحبه معي لدى أناس أعلن له أنهم شركائي ، وأريه مطعما أقول أني صاحبته وأقدمه للناس بصفته زوجي المهندس الزراعي .

رأيت في عينيه دهشة كبيرة ، وألما أكبر لكوني خجلت من ذكر مهنته الحقيقية ، وفطن حينها أني لا أختلف عن أختي .

لم يمر الكثير حتى أدرك أن وجدي لا يتعامل معي بصفتي شريكته فقط ، وإنما شعر بأن الرجل يكن لي في داخله ما هو أكبر ، لمس طمعه ورآه ، تشاجر معي بسببه كثيرا ، لكني كنت أحاول تهدئته بشتى الطرق ، إلا أني فشلت في إتباع أسلوبي السابق مع جمال فعبد المحسن لم يكن للجنس سيطرة عليه ، لكن كلمة حلوة ، وضحكة مائعة ، وبعض حنان ، ودلال كانوا يحيلوه طفلا في حضني .

عاش عبد المحسن من قبل مفتقد الحنان فكانت ربتة خفيفة على كتفه تجعله ممنون ، حضنا دافئا يحتويه يحوله خاتما بالإصبع، لم أكن أتركه غاضبا ، ولم أمض ليلة إلا وهو على وفاق معي ، أودعه وشوقه للقاء يسبق خروجي .

إلا أنّه كان يُصر على أن يتواجد معي في كل لقاءاتي بوجدي ، كان يتعامل معه بصيغة اللاسلم واللاحرب يتبادلا الابتسام ، وتحت الرماد ناراً تستعر .

لم يكن أحد يعلم بأمر المطعم برغم تزايد الكميات التي صرت أنتجها ، وعدد البنات الذي تضاعف ، لم يفكر احد في كوني افتتحت مطعما .

غبت عن عبد المحسن وقد اعتاد غيابي ليوم أو اثنين ، وأحيانا ثلاثة أيام ، كانت تلك الأيام التي أصبت فيها بالتسمم، هفت نفسي وأنا في الطريق للسريس والجعضيض فملت على الأرض آخذ منهم وآكل ولم أكن على دراية بأن الأرض قد رشها صاحبها بالمبيد قبل ذلك بقليل .

استدعى عبده الدكتور عوض الذي أسعفني في المستشفى ، ووالى علاجي بالبيت ولكم كنت خجلة ، وهو يلمسني ، ويكشف عليَّ ، لا أعرف لماذا تذكرت ماضيّ معه ، وقارنت بين لمسة يده المحبة والعاشقة قديما ، وتلك اللمسة التي تؤدي عملها في مهنية شديدة .

لهفة عبده وقلقه وارت داخله غيرة رجل على أهل بيته فنسي ما كان ، وبقي عوض الطبيب الذي يساعد في تطبيب خالته .

مرت أيام ثلاث ذهبت بعدها على عجل لأطمئن عبد المحسن الذي بكى بحرقة كونه زوجي وآخر من يعلم بما أصابني، وكذلك لم يكن بيده أن يقف إلى جواري في محنتي حتى لو علم .

بدأ يضيق بالأمر بشكل لم أعهده فيه ، لم ألمس تلك الصلابة ، وهذا العناد ، فهو لم يكن هكذا ونحن صغارا ، كان

لينا هادئا ، تسهل السيطرة عليه ، حتى حناني عليه كل يوم يفقد أثره لم يعد بمقدوري امتلاكه وأعترف .

بت أشغله بأخبار عوض وعبده، تارة أخبره بطلاق عوض، وحالته النفسية السيئة، وتارة أخبره بصداقتهما للحاج مجدي الذي تعرف عليه عبده من خلال أخي صالح، ولقاءاتهما المتعددة في بيت عبده، كنت أنقل له كل أخبار البلدة كأنه يعيش فيها .

الأيام تمر وأنا كالبهلوان أرقص على كل الحبال بين بيتي في طنطا، وبيتي في البلد، بين عملي بين الفتيات في القرية ، وموالاة المطعم ، والاشراف عليه وخاصة في غياب وجدي في القاهرة .

والهروب من عبد العزيز وحميدة قدر الممكن حتى لا أبحث كثيرا عن تفسيرات لغيابي المستمر .

لم يعد وجدي يكتفي بالنظرات صار غزلا صريحا دون مواراة ، ما عاد يتحكم بمشاعره ، وكان عليّ ممارسة دور البهلوان معه أيضا باستخدام دهاء أنوثتي .

كنت أعتقد أني ملكت كل خيوط اللعبة ، وسيطرت على كل الأمور ، حتى وقع شيئا لم يكن قد حسبت له حساب

رغم تكرر حدوثه ، إلا أنه في كل مرة يلقي رفض إلا هذه المرة .

تلك المرة عبده هو من عرض الأمر عليّ وهو من أكن له معزة خاصة ، كما أنّ ما أتى به لا يُرفض أبدا ؛ لكن لابد أن أرفضه فهذه المرة أنا على ذمة رجل آخر كيف أرضى بخطبتي لرجل ، وأنا زوجة لآخر ؟!!

لذا حين عرض عليّ عبده الزواج من مجدي انفعلت ، ثرت دون أن تكون لدي أسباب مقنعة ، فأنا أعلم أن عبده انتقى لي شخصا جديرا بي ، ولم يكن يستحق ما فعلته به وزينب .

لو لم أكن قد فعلت ذلك لانهدم بنائي الذي تعبت في تشييده لشهور وشهور ، تألمت جدا لسوء علاقتي بعبده الذي اضطررت أن أواري وجهي منه في الطريق .

عبده لدي غير الجميع ، ابن أختي ، أخي ، توأمي ، رفيقي.

مضت بي الأيام وأنا وهو على بعاد ونسكن نفس الشارع ، كان في الجيش ، وكنت أكتب له لم أنقطع عنه ، والآن أراه كل يوم ولا أستطيع محادثته .

صالحت زينب ، قبلت رأسها ، طلبت سماحها ، أوهمتها بالحديث أن هذا الرجل لا يلائمني ، وأني غاضبة من عبده لأنه هو الآخر أراد أن يرغمني .

لانت أختي الطيبة ، ونسيت إساءتي إليها ، حتى جاء يوم كنت أشعر بضيق لافتقادي عبده ، وشجاري مع عبد المحسن بسبب وجدي شريكي ، وكذلك أمر مجدي الذي لولا إخفاء أمر زواجي ما كان حدث كل هذا ، وما خسرت أقرب الناس إليّ ، ذهبت حاملة همي معي إلى حيث أنسى دائما معاناتي ، هناك تحت شجرة التوت جلست ، تدور عيني بين الحقول ، والساقية القديمة ، وألمح التوت على الأفرع في طريقه للنضوج ، ذهبت ذاكرتي إلى أيامنا البعيدة أيام طفولتي ، ومرحي هنا وعبده وعوض وعبد المحسن .

لم أدر كم مرَّ عليَّ من وقت ، وأنا أجلس تائهة ، أمنع عقلي من التفكير ، حتى وجدت عوض يناديني ويسلم عليّ ويدعوني لمصالحة عبده الذي كان بالعشة ، ولم أكن أعرف ، دخلت إليه يدفعني عوض إليه ، عاتبني مذكرا إياي بأني داريت وجهي عنه ومضيت ، كان هذا أكثر ما أثر به .

أخذته في حضني ، قبل رأسي ، ومضينا سويا ، قضينا اليوم معا ، عرجنا بداية على بيت زينب ثم ذهبنا لحميدة التي أخذتنا بالأحضان وأطلقت زغرودة شقت سماء قريتنا .

في الشهور الثلاثة التي استمرت فيها قطيعتنا بُني حاجز لم يهدمه تصالحنا ، عبده يتحاشى فتح الموضوع مرة أخرى رغم

ما يملأ عينيه من حديث ، ولم أحاول نبش الحكاية مرة أخرى.كنا برمضان، أصر عبد المحسن أن أبقى معه يومان لا أذهب فيهما للبلد ، وطلب المطعم تواجدي فقد كنا في ذروة العمل لم نغلق المطعم بالشهر الكريم كباقي المطاعم فلقد ازداد الطلب على مأكولاتنا في ولائم رمضان ، والدعوات ، والعزائم الكبيرة فكنا نعمل بشكل مضاعف .عدت للبلدة ، وكان عليّ أن أمر على عبده وحميدة ، وصلت للبيت لأجد عبده وعوض ومجدي أمام الدار ألقيت السلام ، ودخلت حيث حميدة ، تبعني عبده بعد فترة ، سألني عن سر غيابي ، كان يجب أن أقول أن لي بيتا في طنطا .كان هذا الشجار الثاني ، غضب وسأل لماذا ؟ لكني أخبرته أنه ليس من حقه أن يعرف ولا يسألني وتركت البيت غاضبة ، ليس مهما أن يعرف ، علَّ معرفته أفضل من عدمها حتى أستطيع التفرغ لعملي هناك .كنت أحب التواجد في المطعم أتلمس إحساس الزبائن بنفسي وأرى في عيونهم اللهفة في انتظار الطعام والاستمتاع بتناوله ، إلا أنني كنت أفقد رغبتي عند تواجد وجدي .كان لوجدي شخصية غريبة ، كان لها في داخلي صدى الأراجوز رغم أنه يعتبر نفسه شخصا لا مثيل له ، وأنَّ أسلوبه ساحر ، ومقنع يدخل القلب على حد تعبيره ، إلا أنني حين أراه يمسك سماعة الهاتف ويأمر ذاك ، ويغلق الخط ليتصل بآخر يخبره بأن من أمره منذ قليل سيأتيه

وعليه أن يستقبله ثم يغلق الخط ليعاود الاتصال بالأول ليخبره بأن الثاني ينتظره ، ويملي عليه أمرا آخر يصيبني الاشمئزاز ، وهكذا لا يكف عن الإمساك بالهاتف ومهاتفة خلق الله ليلقي الإحساس بأهميته في نفوس كل من حوله وأنه دائم الانشغال لا يخلو أبدا .

لكني كنت أتمالك نفسي حتى لا أضحك ، وبرغم كل تلك المكالمات كان لا يرفع عينيه عني وعن مواصلة إيلامي بنظراته التي تخترقني ممزقة ملابسي حتى تصل إلى لحمي ، كنت كلما التقيته أحسني عارية ، كان يذكرني بعيني جمال ، ورغبته التي لا تهدأ . صار وجدي موضوع حديثي وزوجي الذي يغار منه بشدة، كل يوم وآخر نتشاجر بسببه وما إن نتصالح حتى نعاود شجارنا ، بت أختنق من حياتي ومن عبد المحسن الذي أحسه قد فطن لسبب زواجي به ، لا أعرف لماذا لا أستعمل الحيلة معه أكثر من هذا ؟

زهدي فيه قد يكون السبب ، رغبتي في مفارقته تتزايد يوما بعد آخر لكني أنتظر أقرب فرصة وقد تكون تلك الفرصة التي انتظرها هي التي لا تجعلني أواري عنه غزل وجدي ، إلا أنني كنت سعيدة فلحظة أن يضيق الخناق سيفر الطير من العش وأبقى وحدي دونه وغيره .

(١٠)

في عصر أحد الأيام كنت عائدة من البلد إلى بيتي في طنطا حيث استقل سيارة من القرية للمركز ومن المركز أستقل أخرى لطنطا ، وفي المركز التقيت مصادفة بعبد المحسن الذي كان في زيارة زميل علم بمرضه في مستشفى المركز رغم حذره في الانتقالات خوفا من أن يراه أحدٌ من قريتنا .

قابلته عند باب المستشفى فتأبطت ذراعه ، وسرت معه لنستقل سيارة تحملنا إلى حيث بيتنا .

وبينما نسير سويا وقد غيبني كلامه قليلا فلقد كنت بعيدة عنه منذ أيام ، فابتسم تارة وأضحك أخرى ، وإذا بي وجها لوجه أمام عبده وحميدة .

المفاجأة كانت كبيرة أصابتنا جميعا بالصدمة وقفنا برهة وجها لوجه كمن تسمرنا بالأرض إلا أن حميدة جرت عبده جرا بعيدا عنا .

كيف لم أحسب حساب هذا الموقف ؟

كيف مر عليٍّ دون أن أفكر به ؟

تركت نفسي لأسير معه وقد تأبطت ذراعه ، وألف شخص من قريتنا قد يمر ويرانا فالجميع لديهم مصالح بالمركز والطريق قصيرة بين قريتنا والمدينة والسيارات كل يوم في ازدياد ، كيف تركت الأمر يمر دون أن أفكر ؟ أين كان عقلي ؟

لم أستطع السير وكذلك هو ، فأنا اعلم كم يحب عبد المحسن عبده ويقدره ، لقد رأيت نظرات عبده التي نفذت إلى داخل عبد المحسن ، نظرات قاتلة ، سحقته ، ساوته والأرض .

جذبته من يده لنسير ، كان كالمغيب ، خلته أصيب بإغماء لكنه لازال واقفا على قدميه ، عيناه مفتوحتان وتطل منهما نفس أمارات الدهشة ، لحظة أن رآنا عبده ، دهشة ممزوجة بالخجل ، بالاعتراف بالخطأ ، بالألم .

عند وصولنا للسيارة التي سوف تقلنا إلى طنطا التفت يعدو فاضطررت للعدو وراءه ، لحقت به على باب بيت عبده إلا أننا وقفنا في انتظار أصحاب البيت الذين لم نجدهم فيه ، وقفنا متحملين نظرات أهل القرية المتسائلين (إيش لم الشامي على المغربي) إلا أني آثرت أن أعطيهم ظهري بينما جلس عبد المحسن على المصطبة المتاخمة للدار مطأطئ الرأس كل دقيقة ينظر لساعته ، كنت أحس مرار الانتظار وسوء الفعل يقتلانه ، بتنا كمن ينتظر تنفيذ حكما عليه بالإعدام ، لكني كنت متماسكة غير عابئة فأنا لست الخاسرة ، وإنما زوجي هو الخاسر الوحيد في تلك الرواية التي نسجت فصولها وحدي وبأسلوبي ، فصديقه الوحيد سوف يضيع منه ، بل لقد ضاع بالفعل ، أما أنا فقد حصلت على جميع صكوك حريتي .

أتى عبده ، وحميدة مصطحبين عوض ، رمقنا بنظرة نارية،ةهمَّ بطردنا لولا أن عوض استوقفه محاولا تهدئته ، دخلنا الدار.

لملم عبد المحسن شتاته لكنه لم ينطق فقلت أنا : عبد المحسن جوزي .

لم يتفهم عبده لِمَ الخفاء ؟

لماذا لم يطلبني منه طالما يريدني ؟

حاول عبد المحسن أن يشرح له الأسباب لكنه لم يتفهم ، وطردني وهو شر طردة من بيته .

خرجنا ، وكل منا تتنازعه مشاعره ، فأنا لم أكن أأمل بعفوه متوقعه ردة الفعل ، لكن إحساسي بالإهانة كان كبيرا ، كما أن تخلي المرء عن الناس بإرادته أفضل كثيرا من تخليهم هم عنه .

أما عبد المحسن فالإهانة كبيرة ، وإحساسه بالألم يتفاقم ويحس جرمه لا يُغتفر ، عبده كان الوحيد بحياة عبد المحسن بعد رحيل أبويه ، وزواج أخته ، والوحيد أيضا الآن لأنه لم يعد يشعر معي بالأمان ، كنت أحس ذلك في عينيه كلما التقينا لولا حبه لي ، وشوقه المستمر الذي يغلبه إلا أنه يشك في حبي.

بدأ يكتشف أسباب بعدي عنه ، بدأ يراني على حقيقتي لأنه شفافا طيبا .

وصلنا إلى بيتنا ، دخل حجرته بدل ملابسه وجلس صامتا ، لم تمتد يده للعشاء الذي حضرته ، فتحت التليفزيون لم يشاهده ، قام إلى حجرة النوم وأغلقها خلفه .

ماذا بوسعي أن أفعل له ؟ مخططي يسير بشكل رائع أفضل ما يكون ، ما حدث لا يعنيني رغم حبي لعبده لكنه مثلهم جميعا وقتما يحس صواب وجهة نظره يفرضها على الآخرين ، ألم يكن ينوي فرض مجدي عليّ لمجرد أنه يراه مناسبا ، وأنه شخص جيد ؟!!

إنه لا يختلف عنهم ، وكذلك عبد المحسن المتحسر على صديقه والذي أسمع نهنهته تأتيني من خلف باب الحجرة ، يبكيه الآن رغم أنه عند تحقيق مصلحته ، ومرامه لم ينتبه : سمع كلامي ، وسار خلفي ناسيا متناسيا صديق عمره ، وانقطاع دابره بزواجه من عاقر مثلي لمجرد أن يطفئ نار هواه وشبقه لي ، لست الملومة على كل شيء ، كل منا له دوره في هذا ، لماذا أحمل العناء وحدي ؟

علمت من البلدة بمرض عبده في تلك الليلة التي كنا فيها لديه ، حزنت لأجله فالصدمة كانت أكبر مما قد يصل إليه

عقله المسكين ، لم أخبر عبد المحسن الذي لا يكلمني تقريبا من يومها ، كلامه نادرا ، غابت ابتسامته ، تباعدت رغبته بي ، حزنه الذي لم أحتويه تفاقم حتى خيم على كل شيء ، لم يكن بمقدوري احتواءه لأنه لم يكن بي رغبة لذلك ، جمال كان به شيئا مختلفا عن عبد المحسن ، كثيرا ما حجمت رغبتي باحتواء ألمه ، ومساعدته ، أحايين كثيرة كنت أحسني أتعاطف معه ، وأنسى حقدي وكرهي له ، بعض أوقات توهمت أني أحبه ، وكثيرا ما أردت أن أرتمي في حضنه وأبكي ، أبكي بشدة حتى يكف دمعي وأن أستمتع بلحظة محبة دون كره أو حقد إلا أن أحقادي ، وشروري كانت أقوى مني فكنت لا أستطيع التغلب عليها ، والانصياع للحظة الهوى التي كانت تأخذني .

لا أعرف لماذا لا أحس هذا الشعور تجاه عبد المحسن ؟!! فكرت ، وتساءلت ، ولم أجد إجابة غير أنه قد يكون سحر الرجل الأول .

مرَّ وقت غير طويل حين فاجأني عبد المحسن بسفره للخليج ، وجدته يلملم أشياءه القليلة ويتأكد من جواز سفره ويوشك على الرحيل حتى دون أن يخبرني .

ثارت ثائرتي وخرجت الكلمات كما المدفع لا تكل ، ولا تمل من فمي ، وهو يواجهها بصمت أشعل نيران غضبي أكثر

وأكثر ، للمرة الأولى في حياتي أشعر بضآلتي ، وأنني كم مهمل لا يساوي شيئا ، ولا أمثل لدى أي مخلوق أية أهمية .

يفكر في السفر ، يتعاقد عليه ، ولا يبلغني بموعد السفر ، يا له من ....

للمرة الأولى يتركني أحد .

صمته يجنني وأنا أحترق أمامه ، ووجهه لا يحمل أية تعبيرات حتى ولو تعبير شماتة بي ، لاشيء ...... لا شيء .

حين هم بالخروج التفت إليّ وقال : سأرسل لك عنواني حينما أستقر حتى تراسليني إذا أردت الطلاق ، أنا لن أمانع فقط اطلبي .

ألجمتني الكلمات وأصمت أذني حتى أني لم أسمع الباب الذي أغلقه خلفه بقوة شديدة ، ووجدتني أتساءل من هذا ؟

ذهب دون وداع ، لم يتصل بي ولو مرة واحدة ، كل ما وصلني منه خطابا به عنوانه فقط لأراسله إن وددت الطلاق ، لم يكن به حتى تحية أو سلام .

أرسلت له خطابات عديدة ليعود ، لكنه لم يكلف نفسه عناء الرد ، لم أكن أريده لنفسي أكثر مما أردته حماية لي ، وردا لكرامتي التي فقدتها برحيله المفاجئ هكذا .

بدأ وجدي يعلنها حربا عليّ ، حربا أكبر مني ومن صمودي ، بات كل دقيقة يتواجد فيها معي يسمعني كلاما لم تسمعه أذني من قبل ، يلح عليّ بهواه إلحاحا تضعف معه مقاومتي يوما بعد آخر ، لقد سقطت كل دروعي ، ووسائل حمايتي ، وهو بعيد غائب تاركاً ذئبا يرعى حرثه .

كرهتني زوجة وجدي بشدة حتى أنها طلبت منه الطلاق ثأرا لكرامتها لا رغبة منها في البعد عنه .

كلما تأملت نفسي أجدني متى سرت أثير رياحا متربة ، ضارة ، أخلق مشكلات لكل من عرفت وكل من أعرف .

ولم أعد أدري من أريد ؟ عبد المحسن أم وجدي أم لا هذا ولا ذاك !!

عملي أحبه ولكنه لا يشبع رغباتي المتقدة ، هناك شيئا ما يدور بداخلي لا أدرك كنهه ولكنه هو الذي يدفعني للاستزادة من كل شيء من المال ، من العمل ، من الرجال ، نعم من الرجال !!

عشق وجدي يلقى بداخلي صدى يطفئ نارا داخلية تستعر كلما ابتعد ، وجود عبد المحسن كان برغبتي وإرادتي لكن

هروبه مني دون إذني أو إشارة لو بالهرب كان يفوق طاقتي ، يحطمني ويذل كبريائي ، صار ينغص عليّ حياتي كلما تذكرته كيف أنساه ، وكل ما في شقتنا يذكرني به ... فراشي ، الملاعق ، الأكواب ، الأطباق ، مقعده المفضل أمام شاشة التليفزيون ، منشفته ، ماكينة حلاقته التي نسيها ، بعض ملابسه القديمة التي تواجهني في الدولاب .

صارت الشقة بعض ألم يوخزني بين الحين والآخر .

ماذا أريد ؟

غابت ابتسامتي ، تشتت فكري ، وجدي يُلح ، امرأته تصر على الطلاق ، وأنا أتواجد معه في كثير من الأماكن .

علمني كيف ألبس كنساء المدينة ، جربت أن تلعب يد رجل في شعري وهو يصفقه ويتقاضى مني مبلغاً ضخماً .

أخذني للقاهرة، دخلت أفخم الفنادق ، قابلت أناسا مختلفين، كل منهم يمثل حكاية منفردة ، جذبتني الحياة التي أدخلني وجدي إياها ، كنت أعلم أنه يغريني لأوافقه على الارتباط به ، كان يعلم أن زوجي المسافر ليس بنيته تطليقي ولكن لا يهمه إن كنت مطلقة أم لا ، فلا مانع أن نعبث في غياب الزوج أو حضوره فهذا ليس مهما .

لكني لم أجعله يهنأ لحظة، كنت كما السراب في قلب الصحراء.

كل إغراءاته لم تؤثر بي، حتى أنه جرب الابتعاد عني ليرى أثره علي، لم يكن يعلم أنها كانت أفضل لحظاتي لأني كنت أتنفس بعيدًا عنه هواء نظيفًا.

أما كلماته التي تدغدغ أوصالي فكان لزامًا عليه البعاد، فعودته بها كان لها أثرًا أجمل وأكبر دون أن أرويه.

لقد احتفظت بعلاقات طيبة مع كل من عرفني عليهم سواء في طنطا أو في القاهرة، لقد كانت أمي تردد: في معرفة الناس كنوز.

أحدهم طلب مني مشاركته في مطعم سيفتحه بالقاهرة، وآخر بالإسكندرية، لم يكن وجدي على علم بذلك ولم يعلم بموافقتي.

في تلك الأثناء علمت بمرض زوج أختي زينب، نسيت كل شيء وذهبت للمستشفى فهذا الرجل كان أحن علي من أبي، مرضه أحزنني، وموته كان له أثر عظيم في نفسي، كنت أبكيه بحق، وأنا أتمزق لغيابه.

بعد العزاء طردني عبده شر طردة من بيت أختي، خرجت مذلولة متألمة، جرحي تلك المرة ما كان يمحيه غير الثأر، لكن ممن أثأر؟ من عبده؟ كيف؟!!

ثم إنه على حق ، أنا من قطعت كل حبال المودة وأواصرها، أنا من رضيت بهذا الهوان لنفسي ، أنا من بعت أهلي رخيصا ، نسيت يوما قالت لي زينب : (اللي مالوش كبير بيشتري له كبير) لقد بعت كل كبير ، كنت في لحظة ضعف وهوان ظهر فيها وجدي بدور البطل المساند الذي يقدم أي شيء حتى يسعد محبوبه .أوشكت على الانهيار ، كنت سأطاوعه ، وأستسلم لأحضانه وقبلاته اللاذعة ، بين لحظة وأخرى كنت سأصير باغية ، خائنة ، سابحة في بئر الخطيئة ، إلا أنني أفقت سريعا كما لو أنَّ حية لدغتني ، في لحظة تجسدت أمامي صورا لأبي وأمي وزوج أختي ، وعبده ، شاهدت زينب عائدة من الحج ، فجأة تذكرت أن لي أهلا بعتهم وسرت عنهم بعيدا ، لا داعي أن ألوث شرفهم ، لا داعي أن ألطخهم بالعار أكثر مما حملتهم إياه .

خرجت أعدو تاركة وجدي تعبث به نيران رغبته ، لا أعرف إلى أين لكني وجدتني في بيتي بالقرية ، في فراشي ، فراش جمال ، أبكي مر البكاء ، أسب نفسي بأقذع السباب ، أكيل لها كيلا من الاتهامات .

تعجبت ضميري المتيقظ !!

تجنبت لقائي ووجدي قدر المستطاع ، رغم محاولاته المستميتة الاجتماع بي في أي مكان ، لكني سددت أمامه كل الطرق .

رجعت فيما عزمت عليه من شراكتي لصاحب مطعم القاهرة ، والإسكندرية ، جمعت كل مليم أملكه واشتريت بيتا متهالكا بشارع البحر بطنطا ، هدمته وبنيت عمارة صغيرة احتل مطعمي الدورين الأول والثاني ، أما الدور الثالث كان به شقتين إحداهما كانت مطبخا للمطعم والأخرى لمبيت الفتيات العاملات بالمطبخ ، والدور الرابع والخامس كان لسكني أنا .

استنفذ هذا البناء كل مدخراتي تقريبا ، ولولا دخل المطعم الذي أشارك وجدي به لما استطعت التماسك ، لكن ما كنت أراه بعيني من مكسب قادم كان يطمئنني كما أنني لازلت أتعامل والبيوت مباشرة ، فهناك الكثيرون الذين لا يستطيعون تحمل ثمن وجبة في المطعم .

في يوم الافتتاح دعوت أناس كثيرون ممن عرفني عليهم وجدي بالإضافة إليه ،

وزوجته التي كانت تقتلني نظراتها تلك النظرات التي حاولت تحاشيها قدر المستطاع ، وتجنب زوجها العائد لها بعد غياب بكل كياسة .

جمعني الحفل ورجل ، كادت كل أوصالي تنحل بمجرد أن وقعت عيني عليه ، خلت أنَّ كل قطعة مني سقطت ، وكل جزء ملقى في ناحية ، لحظة أبصرته فيها عرفني به طلعت الجعفري الذي أراد مشاركتي مطعم الإسكندرية قال: مصطفى رياض صاحب معرض سيارات الرياض بالإسكندرية.

لم أسمع شيئا غير مصطفى ، لقد كانت له طلة تأسر ، وعينا تسحر أوشكت أن ألتهمه بعينيّ ، تعلقت بطوله الفاره وكتفه العريض ، وشعره الغزير .

رأيت فارسا ، لم أفق من سرحتي وقد وصلت بي بين يديه إلا حين لكزني وجدي ليعرفني بضيف جديد ، غاب مصطفى عن عيني ،عدت أبحث عنه في كل أرجاء المطعم ، لم أجده في الطابق الأول ، صعدت إلى أعلى ، كانت عيني تلهث وراءه ، وآه حين أبصرته ثانية ، ورأيت هذا التجاهل الظاهر في عينيه ، اقتربت منه ، سألته وطلعت عن رأيهما بالمطعم ، ابتسما وقالا في ذات الوقت : رائع .

- لابد أن تمرا علينا في طريقكما من الإسكندرية إلى القاهرة، غداءكما دائما على حساب صاحب المحل .

طلعت : إيه الكرم دا مدام مسرودة ؟

- بعض ما عندكم طلعت بيه ، ويارب أكلنا يعجب الأستاذ مصطفى .

طلعت : وأنا لأ .

- أنا عارفة رأيك من زمان .

طلعت : مصطفى ذواق كبير .

صمته جعلني أشعر بنبذه لي ، فانصرفت بعدما لم أجد أي كلمة تقال وأنا أبادله ابتسامة مقابل ابتسامته المجاملة ، والتي بانت كأنه مرغم عليها .

وقفت على مقربة منه أرقبه من بعيد ، لم يكن لي بداخله ذات الوقع الذي كان له بداخلي .

إنه هو .

نعم أحسه هو .

لكني أيضا أشعر به بعيدا ، عينيه لا تفصح بمكنون نفسه ، كيف أقترب منه ؟ كيف أحل شفرته ؟ أين مسرودة البهلوان؟ الداهية ؟ لا أعرف أين ذهبت ؟ أحس أني طفلة لا تتعدى السنوات الخمس .

أهذا ما يسمونه الحب من أول نظرة ؟!!

شغل هذا الرجل كل تفكيري ، رغم إحساسي بالمهانة من نظراته اللامبالية ، أريده في عالمي ، دون أن أفرض نفس عليه ، سأجعل تأثير طعامي هو ما يجلبه لي .مرت مدة حسبت أيامها سنينا ، لا أدري كيف مرت عليّ قبل أن أدعو طلعت للغداء بحجة تفكيري في تجديد عرضه علي بالشراكة ، رغم عدم توفر رأس المال لدي ، ولكني رميت الطعم ،وكان عليه التقاطه ، و عليّ الصبر ، الصبر مشكاة الصابرون وكيف الصائدون .

قال : سأبحث عن شريك يمدني بالمال ، وأنت تمدينا بالطعام كأسلوب شراكتك مع وجدي، كنت أعلم أنه سيفعل ذلك لأنه تنقصه السيولة ، لذا أدركت أنه سيبحث عن شريك ، وضعت يدي على قلبي متوجسة ألا يكون الشريك مصطفى ، كنت أدعو الله أن يكون هو شريكنا المنتظر .

جاءني الاثنين في كامل بهائهما إلا أنه كان أكثر بهاء ووسامة ، ما أروعه !

كنت قد طهوت طعام مائدتنا بنفسي وأخبرتهما بذلك .

عددت الأصناف ، أكلا باستمتاع رهيب ، العيون الصامتة نطقت ، الابتسامات الباهتة أشرقت ، الوجه ذو المعنى الواحد حمل العديد من المعاني ، لا أعرف كيف أصف ما رأيته على وجهه .

كان للطعام سحر أحاله من حال إلى حال، كان كالمأخوذ.

صفق لي بعد انتهائه قائلا : إيه الروعة دي ، إنتِ ماهرة بجد.. تحفة .

كانت تلك كلماته التي خجلت منها كما لو كنت مراهقة غريرة تسمع كلمة مجاملة ، حتى أنني شعرت بالدم يكاد يتفجر من وجهي حتى أنّ طلعت قال : إيه دا كسفت المدام يا أخي ، وشها إحمر .

قلت : إيه يا طلعت في إيه ؟

مصطفى : أنا مش بجامل، الأكل فعلا جميل ، الحلو ما يعملش غير الحلو .

قلت وقد ازددت خجلا : شكرا مصطفى بيه على مجاملتك الرقيقة .

مصطفى : مجاملة إيه ، الأكل مفيش خلاف عليه ، وحلاوتك كمان مفيش خلاف عليها ، ولو مش مصدقاني اسألي أي مراية ، إن المراية نفسها ما نطقتش يبقى أنا كداب .

طلعت : خف شوية يا مصطفى ، المدام لسة ما تعرفكش.

انزعجت فقلت مسرعة : قصدك إيه يا طلعت بيه ؟

طلعت : البيه دا بياع كلام كبير ، حاسبي .

مصطفى : المرة دي مش كلام ، دا بحق وحقيقي .

رمقته بنظرة متفحصة فعيونه اللامبالية لا أنساها ثم أنَّ الكلام الخارج من فمه شيء وكلمات عينيه شيء آخر ، لازلت لا أشغل اهتمامه ، إعجابه كان بالطعام لا بي ، لازال أمامي جهداً ، لذا سارعت بالقول : كفاية مجاملات ونتكلم في الشغل .

قال هو وكأنه أحس ما بداخلي : طبعا الشغل أهم .

بدأ طلعت باستعراض ما لديه وبدأت أنا الأخرى بعرض ما لدي فإذا بنا لا نستطيع بداية أي شيء فإذا به يعرض شراكتنا بالنصف ، وأنا وطلعت النصف الآخر .

تبقى لنا مشكلة نقل الطعام ساخنا من طنطا إلى الإسكندرية كل يوم وحسب الأصناف الموجودة بالقائمة أمرا صعبا ، الأمر مع المسرودة والكسكسي هين جدا لكن مع الفطير والحمام والمحاشي وباقي أصناف الطعام كان الأمر بغاية الصعوبة .

فإذا بمصطفى يقول : مفيش مشكلة والأمر مش صعب ولا حاجة ، سيارة تلاجة تحمل الطعام غير مطهي كامل الإعداد ونعين طباخين بمطبخ المطعم وظيفتهم الوحيدة تسوية الطعام وكذا إعداد أية مأكولات يطلبها الزبائن ليست على القائمة ثم أكيد هتحصل بعض مواقف صعبة يمكنهم تداركها .

- كويس جدا الحل دا .

نطقناها أنا وطلعت في ذات الوقت .

بدأنا العمل ونجحت كالعادة ، كثيرا ما تأملت كل حياتي ونجاحاتي اللانهائية وأتعجب ، ألهذه الدرجة أحظى برضا الله .

أأنا على صواب أم أني مخطئة ؟

وإن كنت مصيبة لماذا أبيت كل ليلة وإحساسي بالذنب يكاد يميتني ؟

لماذا أحلم كل ليلة بزينب وعبده وهما يشاهداني أحترق ولا يقومان بإنقاذي ؟

لماذا أرى أخوتي والناس تقذفهم بالحجارة حتى يموتوا رجما؟

أنا لا ..... أنام .

كلما جمعتني الظروف ومصطفى أجده يتباعد ، إنه يصر على البعاد وأنا لا أريد أن أكون في نظره سهلة رخيصة ، أريده وعزتي وكرامتي في آن واحد ، لكني أدركت بأنه يعلم ما بنفسي من كثرة تجاهله الوجود معي دون طلعت وكلماته المقتضبة جدا إذا انفردت به ، كمن يصر على أن يمحو أي أثر له في نفسي ، كان لا يريدني بدرجة كبيرة .

من الواضح أنّ مصطفى ولد غنيا ، سألت طلعت وأكد لي ذلك ، يتكلم بضع لغات ، أنيق في كلامه كما في ملبسه ، من أكون أنا إلى جوار نجمات المجتمع اللاتي يعرفهن ؟!

من أنا ؟ ما هي شهاداتي ؟ أية لغة أتقن سوى العربية بلكنة ريفية فشلت في التخلص منها رغم كل ما مر علي ومن قابلت ، ومهما بلغت درجة ثرائي فهي إلى جواره لا شيء ، ماذا أمثل له سوى فلاحة تطهو جيدا ، وطهيها يدر مالا يزيد ثروته ، وقد يكون مشروعنا مجرد تسلية يتسلى بها .

يتباعد ويتباعد ، حتى الحسابات يرسل محاسبه دون أن يأتي، وكلما سألت طلعت عنه يخبرني أنه مسافر أو مشغول ، يبتكر أي حجة يبرر بها غيابه الدائم عن لقاءاتنا .

ذهبت إلى الإسكندرية بإلحاح من طلعت لمتابعة المطعم رغم انشغالي ، ولأن زوجته تصر على دعوتي في فيلتها بالمعمورة .

كنا في الصيف والإسكندرية عامرة بالمصيفين و زحامها على أشده، قضيت معهم يوما ظريفا وحين أردت العودة صمم طلعت أن أبيت وأسافر في الصباح فلا داعي للسفر ليلا.

وافقتهما واستأذنتهما للخروج إلى الشاطئ ، منذ تعلمت السفر إلى الاسكندرية وانا يأسرني ليلها وعتمة البحر وابتسامته الجميلة في المساء حين يتدافع الموج بقوة نحو حضن الشاطئ فتحده كما البدر يشق ظلمة الليل ، كما سن يضحك .

سرت طويلا وأنا لا أكف عن التفكير ، شريط حياتي كله أمامي أنا وعبده وعبد المحسن وعوض صغارا نلعب عند الترعة والساقية نتسلق شجرة التوت .

تذكرت كذلك زوجيّ اللذان يختلفان عن بعضهما اختلاف المشرق عن المغرب ، والآن أحب رجلا لا يهتم بي على الإطلاق ، سرعان ما تمثلت صورته أمامي وملأت عقلي حتى صرت لا أرى أي شيء سواه .

وفجأة تنامى إلى مسامعي صوت رجلان يتحدثان من مسافة بعيدة نسبيا ولكن صوتهما يصل إليّ ، لم ألتفت لهما ، واصلت سيري ، لكن كلامهما وصلني فصمت الليل يرسل الهمس .

- طلاق تاني ، أقصد رابع .

- أعمل إيه ما كل حاجة على إيدك .

- بس يا ابني دا حرام .

- وأنا مالي ما هما اللي بيطلبوا ، أنا ما جبرتش حد .

- يا سلام ! مش معاملتك ليهم هيا السبب ، هو أنا تايه عنك يا مصطفى ؟ هي عشرة يوم ولا اتنين ؟ دا عمر .

اصطدمت باسم مصطفى يخترق أذني مع تشابه صوتيهما في عقلي وصوت طلعت ومصطفى .

ووجدتني أقول : أربع زيجات ، ونساء يهربن لا يكملن المشوار ؟

دارت بي الدنيا ، كدت أعدو نحوهما وأقول كيف ؟ ولماذا؟

تلاشى صوتيهما فجأة فلم أعد أسمع شيء ، التفت لأرى أين ذهبا فوجدهما قد عادا أدراجهما ، فعدت أنا الأخرى لأجدهما جالسين في شرفة الفيلا ، ألقيت عليهما التحية ودخلت دون حديث .

توجهت لزوجة طلعت محاولة استدراجها لمعرفة شيء عن حياة مصطفى فسألتها عن سر تغيب زوجته .

- دي سايباه بقالها مدة وطالبة الطلاق .

- ليه خير ؟

- مصطفى بيحب الستات زي عينيه ، وما بيقدرش يحكم نفسه، اللي تتجوزه بتجيلها أخباره كل ثانية ، الواحدة منهم تلاقيها بتموت شوية بشوية، دا غير معاملته اللي بتتغير بعد الجواز بشكل رهيب زي ما تقولي كده خلاص بيبقى حاسس إنهم ملكه ومحدش هياخدهم منه مهما حصل ، فقد حس

المنافسة والمغامرة ،ولما تبقى الواحدة منهم في بيته تضيع رغبته فيها ، زي الطفل الصغير لما يصمم يشتري لعبة وبعد ما يشتريها ويلعب شوية يزهق ويرميها .

سرحت في كلماتها وبرق سؤال يؤرقني : إذا كان محبا لنساء بهذا الشكل لماذا لم يقترب مني ؟ ألم أعجبه ؟ كل الناس يرونني جميلة ألا يراني هو كذلك ؟

الغموض الذي يلف مصطفى يزيدني تعلقا به ، لكن عجزي يقف حائلا بيني وبينه ، اللهيب المستعر داخلي يزيد عصبيتي ، لا أهتم ولا أفكر في شيء سواه .

(١٣)

اتصلت بزوجة طلعت ، أخبرتها برغبتي في صحبتها لانتقاء بعض الملابس لي وأني سآتي إليها في الصباح حتى يتسنى لنا الشراء كما يحلو لنا .

اشتريت ملابساً أنيقة تليق بأميرة، وليس بالفلاحة مسرودة.

عملت على لإنقاص وزني قبل الشراء وفقا لنصيحة ناهد زوجة طلعت ، غيرت تصفيف شعري ، تبدلت كثيرا قبل أن ألقاه ، لذا حين جمعني به لقاء غير مدبر رآني امرأة أخرى ، شديدة الحسن لا تلقي بالا له .

عاملته بمثل معاملته كأنه فردا عاديا لا وجود له ، رأيت نظرة عينيه الشبقة ، والمتألمة من التجاهل وعدم الترحيب به كعادتي معه .

مال طلعت نحوي وهمس بأذني : إنتي جنان النهاردة في إيه؟ بس إنتي مالك مش سائلة في واحد صاحبنا ليه ؟

ابتسمت وبداخلي شعور بالانتصار فلقد وصلهما ما أردته أن يصل فقلت : أبدا ، عادي .

حاولت بقدر المستطاع أن أتخلى عن لكنتي الريفية فصرت واحدة من سيدات المجتمع اللائي يعرفهن .

وفجأة ودون سابق توقع سألني طلعت عن عبد المحسن ، كان سؤالا في غير موعده ، فجر بداخلي إحساساً بالخيانة ، والغدر لتذكيري به في هذا الوقت الذي أحاول فيه الإيقاع برجل يهملني .

لحظتها علت الدهشة وجه مصطفى وقال : هو إنتي متجوزة يا مسرودة هانم ؟

- إيه ما أنفعش ولا إيه ؟

- لا أبدا مقصدش ، بس أصلي ما شفتوش ولا مرة ، وإنتي ما جبتيش سيرته أبدا .

- أصله مسافر من مدة بيشتغل في السعودية .

- وإنتي مش معاه ليه ؟

- أصلي معرفش أعيش غير هنا ، وما كانش ينفع أسيب شغلي هنا .

حينها لمعت عينيه ببريق غريب ، عجيب ، كان كمن أحرز مكسبا ، عجزت عن فهم سره ، فشل ذكائي في إدراك ما يفكر به .

لم يمض المساء إلا وكان يحدثني عبر الهاتف يدعوني للعشاء ، لم أتمكن من رفض دعوته التي انتظرتها طويلا ، كما أن

الفضول كان يتلاعب بي لكشف هذا الرجل المجهول ، ولمعرفة سر التحول المفاجئ .

تأنقت في بساطة علمتها لي ناهد ، فبنت ولا ملكات الجمال ، رأيت ذلك في عينيه ، وعيني كل من تطلع لي في الفندق الذي أنزل به كلما نزلت الإسكندرية ، نظرات الإعجاب جعلتني أطير من الفرحة .

أخذني لواحد من أماكن الإسكندرية الساحرة ، طلب لنا العشاء وجلس يحدثني في العمل كلمني عن عمله وعن مطعمنا، أخذنا الحديث ، لم نتكلم فيما أردته أن يتكلم فيه، لم أستطع من جلسة واحدة أن أفك طلاسم جدره المخبوءة ، لكني صبرت فقد كنت على أول الطريق وأول الغيث قطرة .

عدت لطنطا و لم أكن أنام كل ليلة إلا بعد اتصال منه ، وبرغم عشقي لمحادثاته التي تقريبا أدمنتها، كان بي خوف غريب وتوجس لا أعرف سببه ، فهو رجل يصعب التعامل معه أو فهمه ، لم تكن شخصيته واضحة كوجدي مثلا ، أو تحاول أن تكون فطنة مثل طلعت ، أو شفافة كعبد المحسن وعبده .

تملكني الخوف حتى صرت معه كمن أسير على الجمر ، أخشى كل شيء ولكني أحبه ، اندفاعي نحوه مهما حاولت أن ألجمه كان أقوى مني ، أحببته بكل كياني ، بكل ذرة في

جسدي ، مكالماته ، لقاءاته هي ما اقتات به، ما يشعرني بالوجود ، يعطيني إحساسا بالسعادة لا يشابه إحساسي بجمع المال وبالثراء والنجاح المستمر ، ورؤية نظرات الإعجاب في عيون كل من حولي بطعامي ومطاعمي وتلقي التهاني منهم .

إنه شيء مختلف ، كلمة الحب التي نطق بها شعرت معها بأني لأول مرة في حياتي .... أحيا .

لأول مرة أنسى أحقادي وشروري ، وكل مخططاتي ، وأعيش كفتاة تنتظر لقاء محبوبها ، انطلقت مني كلمة حبيبي بإخلاص ، وبحق لأول مرة بدون قصد ، كدت أعلنها للعالم كله ، وأصرخ أنا أحب هذا الرجل .

عشقته حتى الثمالة لم أكن أحس إلاه، ودار بعقلي أن يذهب لأهلي ليطلبني !

أهلي ....؟

لقد تركتهم وقد فضحتهم بزواجي السري ، قاطعتهم وأنا السبب ، مات أخي زينهم ولم أذهب للعزاء وأنا التي يجب أن تتلقى عزاءه .

أهلي .... كيف ؟

لكنه الرجل الوحيد الذي اخترته، من لم تمله عليّ الظروف، من لم يجبرني عليه أحد ، أنا التي أريد تلك المرة ، ولهذا أود أن أكون عروسا بين أهلها ، وعشيرتها تلبس فستانها الأبيض ،

تجلس وسط الناس تغمرهم بفرحتها وحبها ، ترقص على نغم الحب .

وجدتني أبحث في أوراقي القديمة ، في سنوات الماضي عن خطاب وردني والآن فقط حان وقت استعماله والرد عليه ، خاصة بعد أن وصلت في علاقتي بمصطفى لوضع خطر لا أريد أن يزداد خطره ، وأنا لست زوجته ، بدأ غزله يتعدى مرحلة الكلام ، وبدأ يدفعني لسكة لا أريدها .

لذا بات عليّ طلب الطلاق من عبد المحسن المسافر منذ أعوام طويلة ، وجدت الخطاب الذي أرسله لي حاملا عنوانه هناك ، فلقد نسيت العنوان بعد أن يئست من محاولة إرجاعه ، فكففت أن أرسل له الخطابات .

وها أنا أرسل الخطاب الذي ينتظره وجاء الرد في البريد السريع، ذهبت حاملة بشراه لمصطفى ، وعدت بصدمة أفقدتني توازني ، هزتني ، أسقطتني من قمة الهرم لسفح الأرض مرة واحدة .

المحب الواله ما كان محبا، كل ما أراده هو العبث مع امرأة رأى في عينيها حبها له ، وما المانع فهي متزوجة ، ولن تطالبه بزواج ، وأنه كان يعتبر تمنعي عليه بعض دلال يوقعه في شرك الشوق ، لكنه أبدا لا يتزوج مثلي من أكون ؟!!

خرجت حاملة دموعي ، وآهاتي ، وإحساسا بالإهانة ، والخيبة ما شعرت بمثله أبدا ، مرارة تملأ جوفي .

هرعت لبيتي لكني لم أستطع البقاء به ، ارتديت ملابسي ، ملابسي القديمة العباءة ، والطرحة ، ذهبت لأرضنا في (داير الناحية)، أرض أبي ، وأخوتي ، وعبده ،وأرضي ، هناك حيث غُرست بذرتي ونمت ، حيث أصلي .خلطت طين الأرض بدمعي ،وما خف شيء من وجعي ، وطأني بشديد القسوة .لماذا إذن كان يثني هواه في محادثات تليفونية طويلة ، ولقاءات كان يخترعها ؟ لماذا لم يكن مباشرا في عرضه ؟ لكنه صائد شاطر ، طاه ماهر يسوي طعامه على مهل و، قد جئت أنا في غفلة منه ، وأضفت ملحا زائدا ، أو أطفأت النار قبل أن يتم نضج الطعام .

إنه العقاب يا مسرودة ، حدثتني نفسي بذلك ، كم كنت أتعجب ربحي الدائم ، ونجاحي المستمر ،والحياة التي كانت تسير ريحها في صالحي دائما ، كانت تمهلني فقط لتلقي العقاب المناسب ، ضربت بي الحائط ، وخسفت بي الأرض ، ما أشد على النفس من قلب معذب في الحب !! وما أصعب في الحياة من امرئ يعشق بلا طائل ، ومن مهان كان يعتلي صهوة الدنيا.

أمست بي الدنيا ،وأنا أفكر فيما حدث فإذا بالليل قد أرخى سدوله ، حمدت الله أن لم يأت عبده ، أو يتعرف علي أحد المارة .

أخذت سيارتي ومضيت ، عدت لبيتي استوطنت سريري لأواصل أنشودة البكاء ، لم يتوقف لصباحات عديدة ،و حين كففت عنه بدأت أفكر كيف أتخلص من شراكته ، ومن وجوده بحياتي بأي ثمن .

تعجب طلعت تجاهلي لدعواته ولقائه ، ورغبتي الغريبة في إنهاء الشراكة بيني وبين مصطفى ، لكن طلعت الذي يحاول التفطن علم أن مصطفى حاول العبث معي ولهذا أطلب فض الشراكة .

و لم أكن لأعطيه ردا شافيا .

فاتح طلعت مصطفى برغبتي وهو في شراء نصيبه ، فعدم وجودي يعني توقف المطعم ، وهذا ما لا يريده طلعت ، كان علينا شراء نصيبه وقد وافق بلا تردد ولا سؤال .

جمعت كل ما أملك واستدنت من البنك بضمان عقاري ومطعمي ، وجمع طلعت ما توفر لديه من سيولة واشترينا نصيب مصطفى فصار المطعم لنا مناصفة ، وحاولت إسدال ستائر النسيان على علاقتي بمصطفى للأبد .

(١٤)

علمت من بعض الفتيات بعودة عبد المحسن من سفره وقيامه ببناء دار جديدة على أرض اشتراها بجوار داره القديمة .

لم يعد منذ سفره ، ولو أسبوعا واحدا ، عاد بعد أن طلقني، واستقر في البلد ، مكتفيا بما مضى عليه من غربة ، وسألت نفسي هل كان بعاده عني يستلزم غربته في بلد آخر ؟!!

مرت شهور وأنا أتجرع فيها مرار ألمي وحبي المشئوم ووحدتي ، أحاول بحق أن أنسى ، و لا أنسى .

لازال وجدي يتقرب إليّ رغم توسع أعماله ، وزيادة مشاغله ، وقلة لقاءاته بي إلا أنه لا يكف عن الاتصال بي .

كنت أجلس بمكتبي في أحد الأيام حين لمحت قادما أعرفه جيدا ، خرجت منشرحة لاستقباله ، كان عوض وزوجته ، رحبت بهما كثيرا ، دعوتهما لأفضل مائدة ، وأمرت بأن تكون كافة طلباتهما وأطفالهما كلها على حسابي .

وعلمت منه أنه زبون دائم ، ويأتي كثيرا ، لكنه لم يصادف ويلقاني في أي مرة .

كلمته كثيرا ، سألته عن عبده وزينب ، روى لي الكثير و لم يأخذ مني أي شيء ، بت أساله عن كل فرد حتى لمحت الضيق

في عيني زوجته التي كنت أراها طفلة صغيرة تلهو حولنا في البلد ، تقريبا أكبرها بعشر سنوات على ما أذكر ، فتركتهما مضطرة رغم شوقي لمعرفة كل شيء عن البلد حتى لا تضيق بي السيدة أكثر .

لكني لمحت بعيني عوض إحساسه بندمي ، وبكائي وحدتي ، وإحساسي بأن كل ما جمعته وما وصلت له لا شيء بدونهم بدون أهلي ، أحيا بلا ولد خاسرة فلمن كل ما جمعت ؟

بعد عامان من انفصالي وطلعت عن مصطفى توفيت ناهد زوجة طلعت ، تلك السيدة الرقيقة التي احتلت في نفسي مكانة كبيرة ، وكانت نعم الصديقة ، حزنت كثيرا عليها ، وارتديت الأسود حدادا عليها مع أولادها .

طلعت كان يحبها كثيرا ، ويخلص دائما لها ، تألم بشدة وصعب حاله بعد رحيلها ، وقفت إلى جواره في محنته القاسية ، وخاصة أنه كان وحيدا بعد زواج كل أولاده .

لم تمض ستة أشهر على وفاة ناهد حتى عرض عليّ طلعت الزواج ، سألني أن أكون رفيقته في الوحدة ، فهو لا يطمع بامرأة بقدر ما يريد سكن ومودة وأنيسا لوحدته .

كنت وهو المثال الحقيقي للوحدة ، أنهيناها بزواج جديد بعد ثلاثة عشر عاما منذ رحيل عبد المحسن ، كفاني ما ضاع

من سنوات عمري هباء ، امرأة أربعينية ، ورجل يكبرني كثيرا ، ولكني لم أهتم فلم أعد أطمع بالرجال .

تزوجته فوجدت أبا ، وأخا ، وزوجا ، لم أكن أعلم بمقدار ما يحويه قلبه من حنان إلا بعد أن اقترنت به ، كان نبعا متدفقا من الحنان ، يملك من العطف ما لم أره في حياتي أبدا .

سكنت إليه ، أخرجت ما لديّ من مخزون كنت قد نسيته ، كل ما منعته عن جمال وعبد المحسن ، كل ما ضننت به من حدب الأنثى ، وعطفها ، وحنانها أخرجته فارتاحت نفسي المعذبة ، وهدأ ضميري الذي لم يكن يكف عن تأنيبي .

وجدتني لأول مرة في حياتي كلها أعرف معنى الراحة ، وأتمكن من النوم ، كنت أنام بين يديه كطفلته التي يهدهدها كي تنام ، لم يكن يغمض لي جفن إلا بعد أن يلفني ذراعه ورأسي على كتفه .

أحببته حبا هادئا بعيدا عن نزق العشق المحموم ، وعنفوان الشباب ، والرغبة ، كنت أتعجب كيف لم أر فيه كل هذا ؟ كيف لم أحبه ؟

عرفت حياتي السعادة ، سعادة من الصعب أن أجد لها وصفا ، ووجدتني أخر لله شاكرة ، طالبة من طلعت أن نحج بيت الله .

ولمعت في داخلي ذكرى زينب وزوجها حين ذهبا للحج ، وحالنا يوم وداعهما ، ويوم عودتهما ،والذبائح التي نحرها عبده يوم الرجوع .

عند بيت الله الحرام طلبت من الله الغفران ، طلبت أن يطهرني من شروري ، أن ينقي ثوبي الأبيض من الدنس الذي لحق به .

سألته العفو ، والمغفرة تبرأت أمامه من مسرودة التي عرفتها سنينا ، رجوته أن أعود إنسانة جديدة .

دهش طلعت لشدة بكائي ، واستغفاري ، وندمي ، وتذللي لله سبحانه وتعالى .

سألني عم أطلب الصفح ؟ ماذا فعلت لأطلب الغفران ؟

لم يكن باستطاعتي إجابته قلت : الحياة بها الكثير .

لم تشفه إجابتي ، ولكنه لم يسأل مرة أخرى .

عدت وهو من رحلة الحج إلى بيتنا بالإسكندرية ، كنت كل صباح أتوجه لطنطا لمباشرة المطعم والبنات وأعود في المساء.

توفي أخي عبد الله وأنا في الحج و لم أتمكن من العزاء هذه المرة أيضا .

كيف أريهم وجهي ؟

لكن كيف سيسامحني الله إن لم يسامحوني هم ؟

لم أجرؤ على مواجهتهم ، لم تكن بي القوة التي تمكني من اللقاء بهم .

كثير من الليالي التي قضيتها ساهرة لم أكن أفكر سوى بزينب وعبده ، صورهما لم تفارق خيالي ، حتى حميدة وطفليها .

سألني طلعت عن أهلي ولماذا لم ير أي منهم لدي ؟

لم لم يحضر أي منهم ليشهد على زواجي وقد علم أن لي عائلة كبيرة ؟

ووجدتني في لحظة أروي له تاريخي ، حكاية مسرودة التي كنت أحيانا أخفيها حتى عن نفسي .

ارتسمت على وجهه أمارت الذهول والاندهاش ، صمت وكأنه قاموسه قد خلى من كل الكلمات ، لم يبق غير الصمت. ذلك ما دعوت الله بتذلل ليغفره لي .

- كل دا جواكي ، وكأني ما أعرفكيش .

- أنا كما ما بعرفنيش ، يا ما تمت جوة مخططاتي ، وأفكاري ، إنت الوحيد اللي خرجتني من جوة دايرة نفسي ، مقدرتش أبخل عليك بمشاعري اللي طول عمري حبساها

لتكون مصدر ضعف يفسد خططي ، أنا معاك زوجة بجد مش وهم كداب شكله من برة زوجة وحبيبة ومن جوة سراب ، مقدرتش أخبي عليك مسرودة أكتر من كده ، بس خايفة قوي يا طلعت .

- خايفة من إيه .

- أموت لوحدي .

- مالنا والموت دلوقت ؟

- خايفة أموت وما اندفنش ويا أمي وأخواتي ، وما ألاقي حد ياخد عزايا .

- إبعدي الأفكار الوحشة دي عن دماغك وبعدين أنا جنبك أهه وإن مت أنا في ألف واحد من الناس اللي انتِ فاتحة بيوتهم يا مسرودة ، إنتِ في شغلك عمرك ما ظلمتِ حد وأنا شفت بعيني عمرك ما اتأخرتِ عن حد .

- إديت الناس واستخسرت في أعز الناس .

- كلنا بنغلط ، بس حاولي تصلحي غلطك ، دايما في فرصة إننا نتراجع .

- إزاي يا ريتني أقدر .

- هتقدري إن شاء الله ، أوعي تخافي .

- مش هخاف وإنت معايا وجنبي .

ضمني بقوة ، تدفأت بحنانه ، بوجوده الذي جعلني أذوب بين حناياه غير راغبة في فراقه لحظة .

مرَّ عليَّ الكثير ، تحملني الدنيا بين طياقا ، تعلمت مع طلعت ما لم أتعلمه في حياتي ، كان يحاول أن يبدي فطنة كعادته لكنه كان معطاء طيبا بلا حدود .

يظن الخير قبل الشر كثيرا ، سافرت معه لبلاد كثيرة وأماكن جميلة ، رأيت ما لم تره عيني ، نقلني لعالم غير العالم وبلاد من المحبة والحنان والعطف فاقت كل ما تصورت .

رأيتني أبادله دون أن أضن ، لو لم يكن كبيرا في السن ولو لم أكن عاقرا لتمنيت أن يكون أبا لطفل أنجبه .

صارحته بأمنيتي نظر إلي حزينا وقال : أولاد الشيبة يتامى كما يقال .

أشد ما أحزنني أنني عرفته سنينا دون أن أعرفه .

(١٥)

كنت وهو بطعمي في طنطا ، نتابع بعض العمل ،ونراجع الحسابات ، دخل أحد العمال وأخبرني أن هناك شخص يود مقابلتي رجل ضخم على حد تعبير العامل .

سمحت له بالدخول وأنا لا أعلم من يكون ولكن حين أبصرته شعرت بأن العالم كله قد توقف ، وأن عقارب الساعات كفت عن الدوران .

بعد كل تلك السنين ألجمتني الدهشة ، لم أنطق ، بادلني هو صمتا بصمت ، وطلعت متعجبا من الحادث لكني لم أستطع تمالك نفسي طويلا اندفعت نحوه وقلت : عبده دا عبده يا طلعت .

دعوته للدخول في حين قال طلعت : ابن أختك زينب ؟

- أيوة هو .

قلت لعبده : اقعد يا عبده .

قال في تجهم : أنا معنديش وقت أقعد ، أنا جاي أقول كلمتين وأمشي .

شعرت أنه كالمجبر على الحضور .

صافحه طلعت وعرفه بنفسه قائلا : طلعت العيسى رجل أعمال وجوز خالتك ، منورنا يا عبده .

قال عبده : منور بصحابه يا بيه تشرفت بحضرتك ، بس أنا بجد مش جاي أتضايف ولا أقعد .

طلعت : طيب عشان الراجل الكبير اللي بيكلمك ممكن تقعد ونتكلم سوا ، دا أنا كان نفسي أعرفك من زمان ، خالتك حكت لي كتير عنك .

تململ عبده لكنه في النهاية جلس وشرب الشاي ثم قلت : إزيك يا عبده وإزي حميدة والولاد ؟

- كلهم بخير ، بس أمي عايزة تشوفك ولولاها ما كنت جيت لك ولا عتبت عتبتك وما كانش ينفع أبعت لك حد م العيال .

- أمة زنيب مالها يا عبده ؟

- ما هي لو كانت تهمك كنتي سألتي عليها ، هي عايزة تشوفك قبل ما تموت .

دمعت عينا عبده رغما عنه بذكر كلمة الموت ، كفكف دمعه بطرف عباءته لكنه لم يستطع ، ضممت رأسه لصدري ،

غير مصدقة أني أحرم منها كل هذا العمر ولا أراها إلا وهي تموت .

شاركته البكاء ، انتفض فجأة وقال : لازم أمشي أنا مش ضامن إيه اللي يجرى وأنا مش هناك .

قال طلعت على الفور : سنأتي معك .

عبده : يا بيه مش عايزين نتعبك ونعطلك .

طلعت : مفيش عطلة ولا شيء إحنا عيلة واحدة ، وأنا كان نفسي أتعرف عليكم من زمان ، ولا إنت بخيل يا سي عبده .

- تنور يا بيه ، دا بيتنا بيت كرم وهي عارفة .

أشار إليّ بحديثه لكني كنت مشغولة بجمع حاجياتي لأنطلق معه نحو بلدي ، لأرى عمري هناك يحتضر .

وصلنا الدار وكنت طوال الطريق صامتة أغالب دمعي ، وبين حين وآخر أرمق عبده لأرى فعل السنين على وجهه ، وهو كذلك بادلني النظرات ومجاهة رغبته في الحديث إليّ ، لازال مني غاضبا لكنه مشتاق به حنين لما كان .

دخلت إلي زينب التي ما إن رأتني حتى دبت الروح في جسدها الخامل، رأيت الدم يتدفق لوجنتيها الشاحبتين ، أخذتها

في حضني وألقيت برأسي على كتفها ، اشتركنا في أنشودة بكائية ، عاتبتني برفق كعادها .

- وحشتيني يا أمة وحشتيني قوي .

- وحشتني قولة أمة من حنكك يا بت .

قبلت يديها ورأسها وأنا أقول : دا إنتي الغالية يا زينب ، أنا ملياش غيرك يا أمة ، سامحيني .

- إنتي عبيطة يا بت إنتي ، هو في أم بتزعل من ضناها ، اللي حز في نفسي إنك ما تفكريش ولا يوم تشوفيني ، ولا تسألي عني .

- كنت بسأل عنك وأعرف أخبارك أول بأول يا زينب ، وفي الحج دعيت لك وتمنيت أشوفك وتسامحيني .

سكت برهة ثم قلت : بكرة نعوض اللي فاتنا .

حمل وجهها الشاحب ضحكة ساخرة وقالت : بكرة إمتى يا مسرودة ، دا أنا خلاص يا بت ، صوتي اللي طالع دا حلاوة روح .

- أوعي تقولي كده ، دا أنا عمري ليكي .

- مين اللي معاكي دا ؟

- دا طلعت جوزي ، آه لو تعرفيه يا زينب ربنا عوضني بيه عن كل حاجة .

- إنتي اللي عملتي في نفسك كده محدش ظلمك يا أختي .

- عندك حق ، بس طلعت ضحكة الدنيا ليا .

أمسك طلعت يدها ولثمها وهو يقول : تقومي بالسلامة يا أم عبده ، ربنا يخليكي لينا .

التفتت لعبده وقالت : قول لأخواتك البنات يجهزوا الأكل عشان جوز خالتك وخالتك يا عبده .

ذهب عبده ليلبي طلبها ثم عاد وأخذ طلعت وجلسا أمام باب الدار ، في حين جلست إلى زينب أروي لها ما مر في سنواتي السابقة .

قلت في أسى : جمعت فلوس كتير قوي يا زينب ، وأرضي البور ما جبتش اللي يورثها .

ربتت على كتفي وقالت : له حكمة يا حبيبتي ، محدش يعرفها غيره ، عنده كل الأسرار .

- صحيح يا أمة ، عنده كل الأسرار .

بقيت إلى جوارها إلى أن غفلت عينيها ، فخرجت لأجلس إلى البنات وحميدة ولأثرثر معهن كما كنا نفعل .

حملت الشاي لعبده وطلعت اللذان وجدتهما وقد انسجما بشدة نظر لي عبده وقال : طلعت بيه هدية خلتني أنسى شوية من عمايلك .

طلعت : اللي فات فات يا عبده ولا إيه ؟ خالتك ندمت بما فيه الكفاية .

جذبني عبده من يدي وأجلسني إلى جواره ، ضمني إليه وقال : طول عمري بعتبرها توأمي ، وأهم حد في حياتي هي اللي باعتني ، باعتنا كلنا .

سكت برهة ثم أكمل : عارفة يا مسرودة كتير كانوا شايفينك على حقيقتك عشان كده ما استغربوش عملك وأولهم الدكتور عوض ، أما أنا كانت صدمتي فيكي كبيرة قوي عشان كنت في خيالي حاجة تانية ، حاجة إنتي برضه اللي خلتيني أشوفها وبعدتي عني بشخصيتك الحقيقية .

- عبده .... أنا ....

- ما تقوليش حاجة ، أنا خلاص سامحتك يا خالتي ، طالما إنك حسيتي بغلطك .

عجز لساني أن ينطق بكلمة بعد كلماته ، قطع طلعت صمتنا ورهبة الموقف قائلا : إيه يا عبده مش هتفرجني على البلد ولا إيه .

عبده: طبعا، طبعا أمال إيه ، بس هدخل أقولهم إننا خارجين .

انطلقنا حيث أرضنا ، شاهد طلعت كل ما رويت عنه حتى أنه قال : أنا شوفت المكان قبل كده ، مسرودة وصفته بشكل رهيب ، الجميزة والساقية القديمة وشجرة التوت ، كل شيء حتى العشة والشاي اللي بتحب تشربه على الفحم .

مضينا في سيرنا حتى وصلنا لقرية جمال حيث بيتي ، دخلت وطلعت في حين ذهب عبده لبيته وقال أنه سينتظرنا هناك .

كان البيت ملآن بالتراب والغبار وخيوط العنكبوت نُسجت في كل مكان .

- آه لو تعرف كان إيه إحساسي أول مرة دخلت البيت دا. زي اللي كنت داخلة القبر صاحية ، جمال ما كانش وحش أنا اللي ما استحملتش إنهم يغصبوني أو يفرضوا عليا حد ، دخلت البيت وأنا عارفة إني مش هريحه ولا هرضى بنصيبي وارتاح .

قاطعني طلعت : إنسي يا مسرودة ، إنسي كل اللي فات ، افتكريني أنا وإنتي وبس .

ضمني بقوة لم أعهدها فيه من قبل ، قوة غريبة على رجل في مثل عمره ، شعرت أني أكاد أتكسر تحت وطأته، لم أشكو، لم أفلت نفسي من بين يديه ، تركت له نفسي مستمتعة بعنيف

عناقه ،وحر قبلاته ، ولهاث المحبة الذي حمل رغبة شاب في العشرين .

تعجبت ، تساءلت ، لم يجبني كان محموما ، مشغولا بإطفاء جذوة رغبته .

خُيّل إليّ أن في هذا البيت سحرا يحمل سكانه لذرى شهواتهم ورغباتهم ، ألم تكن شهوة جمال هنا لا تنطفئ ، وها هو طلعت الشيخ الكبير بمجرد دخوله البيت تلبَّسه شيطان رغبته .

أمهلني دقيقتان بدلت فيهما ملاءة السرير ، وأنفض عنه غباره ثم لم أدر ماذا حدث ، سقطت معه في بئر عميقة ملؤها استمتاع ما بعده استمتاع ، لم أحس نشوة مثل تلك من قبل ، حتى مع جمال ، نشوة مصحوبة بحب كبير ، حب حقيقي .

كان سعيدا جدا ، وكنت سعيدة لسعادته .

مرَّ وقت قبل أن نعدل هندامنا ونذهب لعبده .

استأذن طلعت في السفر لمباشرة عمله .

لكن عبده لم يسمح له بالسفر قبل أن يتناول طعامه معنا .

جلست وعبده نتسامر في آخر الليل قال : جوزك دا كويس قوي ، بتعرفي تنقي .

- أنا ما نقتوش ، دا اختيار القدر ليا دلوقتي ، رغم إني أعرفه من سنين ، ومراته كانت صاحبتي .

- مراته ؟!

- الله يرحمها ، بعد وفاتها طلب يتجوزني ، قالي الوحدة هتموتني ، وإنتي كمان وحيدة تعالي نونس بعض ، وافقت من غير تفكير ، ولاقيتني يا عبده قدام بني أدم معرفوش بحر كبير من الطيبة والحنان ، حاجة كده شبه أبويا سيد الله يرحمه .

- تصدقي ، أنا قلت له كده برضه ، انت شبه أبويا حتى في طريقة كلامه .

- الله يرحمه ويحسن إليه .

(١٦)

النهاية

بدأت الصحة تدب في جسد زينب الخامد ، استبشرنا خيرا، ذهبت البنات لدورهن ، وذهبت حميدة لأبيها وبقيت وعبده بجوارها .

شاهدنا زينب تقوم من فراشها الذي لم تغادره منذ مدة ، جلست في صحن الدار وسط طيورها التي تحبها ، طلبت طعاما، أكلت بشراهة ، تساءلت في نفسي: أهي صحوة الموت أم أنّ الله منّ عليها بالشفاء ؟

خفت وعبده أن تسقط فجأة أمامنا ، لكن الفرحة التي ملأت قلوبنا جعلتنا ننفض خاطر موتها عن رأسينا ، لكن عبده أرسل في طلب عوض حتى يطمئن .

ورأيت الدهشة في وجه الطبيب المتمرس حين وجد زينب كما لو كانت شابة ، حتى ضغط دمها كان مضبوطا جدا .

صاح عوض في فرح : كنتي فين من زمان يا مسرودة ، وجودك عمل انقلاب ، مش معقول ، أنا مش مصدق .

دمعت عينا زينب وقالت : كنتي وحشاني يا بت ، غيابك عياني .

عبده : من آخر مرة شافتك بعد أبويا وهي كل يوم حالها في النازل، كنت فاكر حزنها على أبويا السبب ما كنتش بتنطق ولا تتكلم .

احتضن أمه وقال : آسف يا أمة لو أعرف إن غيابها هو السبب ، كنت رحت بوست على إيدها وجبتها لك .

زينب : إنت حكمت ما تدخلش الدار دي تاني وأنا ماليش غيرها دار ، ما رضيتش أزعلك ، بس ما قدرتش دي بنتي يا وله .

طلب عبده من أمه أن تسامحه ، على خطأ أنا السبب فيه .

ووجدتني عاجزة عن قول أو فعل أي شيء ، أنا لا أستحق كل عناءهم جميعا .

جاء طلعت من الإسكندرية ليطمئن على زينب فوجدها تقف معنا في وسط الدار ، لم يصدق عينيه هو الآخر ولكنه شاركنا الفرحة .

قامت زينب لتعد وليمة تليق بزوج أختها ، أقسمت أنه سيكون ولا يوم فرح عبده .

قالت : تعرف يا جوز أختي أول مرة بشوف في عينين أختي الرضا والفرحة ، أنا صحيح ما دخلتش مدارس ولا اتعلمت بس طول عمري عارفة إن أختي مش راضية ولا قانعة ، جواها غريب ، ساعات كتير بحس إنها بتكره كل الناس وساعات

بتحبهم ، احترت فيها وفي اللي جواها، بس ساعة ما لمحتها وياك ولما باتت ليلتها معايا عرفت إلها اتغيرت بقت حاجة تانية، عشان كده نفسي أعملك فرح وأفرح من قلبي وياكم .

كانت أيامي في القرية مع أهلي كما الحلم مر سريعا بهيا ، جميلا،عدت بعدها للمدينة ولعملي ولبيت زوجي بالإسكندرية.

قبل عودتي عرجت على مكاني المفضل ، كنا في موسم التوت ذهبت على هناك التففنا حول براد الشاي في عشة عبده، أخذت كوب الشاي وتحت شجرة التوت جلست وتركت محمد ابن عبده يسقط لي حباته وعيناي تتابع المكان وتتأمله وتحفظه بين الجفنين ، كانت الأراضي الزراعية على مدد الشوف أضاعها العمران وقضى عليها ، اللون الأخضر الذي كان باتساع السماء صار كتلا من الاسمنت الذي أتت به نقود الخليج ، صار العبير محملا بأنفاس البشر ، أنفاس مبحوحة مخنوقة ، محشرجة ملأى بدخان السجائر وعوادم السيارات وكل أنواع الخلافات والأحقاد والشرور والمساوئ .

كنت خير مثال لمن ملأت الشرور نفسه ، لكني الآن عدت تلك الطفلة النقية التي لم تلوثها الكراهية ، تلك التي كانت تعدو مع أخيها عبده خلف الفراشات الصغيرة وتلهو بقطع

العجين التي تأخذها خلسة من وراء أمها ، عدت بقلب صاف لا يعرف معنى الكراهية ولا يدبر الخطط ليهرب من الأحبة .

جاءني صوتا من خلفي قال : اللي واخد عقلك يا ست مسرودة .

- أنت يا عيون مسرودة .

كان طلعت من يحدثني فإذا بعوض يقول : إش ، إش هو الحب بيعمل كده ؟

عبده : وأكتر يا دكتور ، اسألني أنا .

ضحكت وأنا أنظر للشجرة وقلت لعبده : فاكر ؟

قال : طبعا فاكر وهي دي حاجة تتنسي .

طلعت : إيه الألغاز دي ؟

عوض : لا ألغاز ولا حاجة ، بس أصل الشجرة دي لينا معاها ذكريات ، عبده كان حافظها فرع ، فرع ولا كف إيده .

قاطعت عوض في فرح طفولي : أسرع واحد يتحرك فوقها وأول واحد ياكل منها وبعدين يحن علينا ويدينا .

عبده : وهو إنتي كنتي بستني حد ما إنتي كمان كنتي بتحصليني وتطلعي ورايا .

طلعت : تطلعي الشجرة يا مسرودة ؟

قلت : كان زمان بقى .

مد عبده يده فطال أفرع الشجرة الكبيرة ، أعطى بعض الثمر لطلعت ثم عوض وجاءني ماداً كفه لي بالحبات البيضاء التي أحبها ، وهو يربت على ظهري بيده الأخرى ، فمددت فمي نحو كفه لالتقط حبات التوت كما كنت أفعل دائما .

في تلك اللحظة ألقيت برأسي على كتفه ، وتركتني لحضنه لسنوات مضت ولسنوات قادمة إلى جواره ومعه .

دمعت عيناي وأنا أسأله للمرة الأخيرة : سامحتني يا عبده ؟

لثم جبهتي ومسح دمعي وقال : أنا عمري ما كرهتك يا مسرودة ، صحيح غضبت ، وغضبي خلاني قدرت أطردك من داري بس عمري ما كرهتك ، رغم إنك كنتي جرح صاحي ما بينام ، بس إزاي الواحد يكره روحه ؟

طلعت : عارف يا عبده لما مسرودة حكت لي عنك وعلى اللي جرى بينكم ما كانش حد تاعبها غيرك إنت ، حتى تعذيبها لروحها ما كانش ضميرها هو اللي بيعذبها دا إنت لأن إنت كنت ضميرها ، كنت الصفاء اللي جواها .

قلت : البني أدم اللي زيك الشفاف الطاهر بيكون ضمير أي واحد عرف الشر طريق قلبه ، أنا ربنا أكرمني بالزوج اللي حقق لي أكتر من اللي في خيالي .

واداني الأخ اللي لو خد عمري مش هيوفيه حقه ، هعوز إيه من الدنيا تاني .

مددت يدي أحيطهما وأسير بينهما وهما حولي ، أتوكأ عليهما وأستقبل بهما القادم من أيامي ، أيام وسنوات من عمري أنا صانعة المسرودة .

تمت بحمد الله

٢٠٠٧/١١/٢٦